

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الحجرات

لفصيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

(الجزء الرابع عشر)

حقوق الطبع محفوظة المؤلف
١٩٨٤ - ١٤٠٤ هـ

﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بسورة الحجر

١ - سورة الحجر ، هي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف ،
أما ترتيبها في النزول فقد ذكر الزركشي والسيوطي أنها نزلت بعد سورة
يوسف (١) ..

وعدد آياتها تسع وتسعون آية .

٢ - وسميت بسورة الحجر ، لورود هذا اللفظ فيها دون أن يرد في غيرها
وأصحاب الحجر هم قوم صالح - عليه السلام - ، إذ كانوا ينزلون الحجر -
بكسر الحاء وسكون الجيم - وهو المكان الحجور ، أى المنوع أن يسكنه
أحد غيرهم لاختصاصهم به .

ويجوز أن يكون لفظ الحجر ، مأخوذ من الحجارة ، لأن قوم صالح -
عليه السلام - كانوا ينحتون بيوتهم من أحجار الجبال وصخورها ، ويننون
بها . محكما جميلا .

قال - تعالى - حكاية عما قاله نبيهم صالح لهم - «وتنحتون من الجبال بيوتا
فارهين» (٢) ومساكنهم مازالت آثارها باقية ، وتعرف الآن بمدائن صالح ،
وهي في طريق القادم من المدينة المنورة إلى بلاد الشام أو العكس ، وتقع ما بين
خير وتبوك ...

(١) راجع البرهان للإمام الزركشي ج ١ ص ١٩٣ والإتقان للإمام
السيوطي ج ١ ص ٢٧ .

(٢) سورة الشعراء الآية ١٤٩

وقد مر النبي - صلى الله عليه وسلم - على ديارهم وهو ذاهب إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة ...

٣ - وسورة الحجر كلها مكية .

قال الشوكاني : وهي مكية بالاتفاق . وأخرج النحاس في ناسخه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحجر بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله ،^(١) .

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه السورة أنها مكية ، دون أن يذكر في ذلك خلافا .

وقال الآلوسی : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير - رضی الله عنهم - أنها نزلت بمكة . وروى ذلك عن قتادة ومجاهد .

وفي مجمع البيان عن الحسن أنها مكية لإلا قوله - تعالى - : ولقد آتيناك به سبعا من المثاني والقرآن العظيم ، وقوله - تعالى - : كما أنزلنا على المقسمين . الذين جعلوا القرآن عضين ،^(٢) ...

والحق أن السورة كلها مكية ، وسنبين عند تفسيرنا للآيات التي قيل بأنها مدنية ، أن هذا القول ليس له دليل يعتمد عليه .

٤ - (١) وعندما نقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، نراها في مطلقها تشير إلى سمو مكانة القرآن الكريم ، وإلى سوء عاقبة الكافرين الذين عموا وصموا عن دعوة الحق ...

قال - تعالى - : (أَلَمْ تَرَ ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين . ربما يود الذين

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ١٢٠

(٢) تفسير الآلوسی ج ١٤ ص ٢ .

كفروا لو كانوا مسلمين. ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون
وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها
وما يستأخرون ...

(ب) ثم نخبرنا بعد ذلك بأن الله - تعالى - قد تكفل بحفظ كتابه .
وصيافته من أى تحريف أو تبديل ، وبأن المحكدين للرسول - صلى الله عليه
وسلم - إنما يكذبونه عن عناد وجحود ، لاعن نقص فى الأدلة الدالة على
صدقه - صلى الله عليه وسلم - .

قال - تعالى - : : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون . » واقد أرسلنا من
قبلك فى شيع الأولين . وما يأتهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون .
كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين .
ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا
بل نحن قوم مسحورون ...

(ج) ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك ألوانا من الأدلة على وحدانية
الله وقدرته ، وعلى سابغ نعمه على عباده ...

قال - تعالى - : : «ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها
من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين . والارض
مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ..

(د) ثم حكى السورة قصة خلق آدم - عليه السلام - ، وتكليف الملائكة
بالسجود له ، وأمثالهم جميعا لأمر الله - سبحانه - ، وأمتناع إبليس وحده
من الطاعة ، وصدور حكمه - سبحانه - بطرده من الجنة ...

قال - تعالى - : : «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون .
والجان خلقناه من قبل من نار السموم . » وإذ قال ربك للملائكة إني خالق
بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته . نفخت فيه من روحي فقعوا

له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون - إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين ...

(هـ) ثم قصت علينا السورة الكريمة بأسلوب فيه الترغيب والترهيب ، وفيه العظة والعبرة ، جانبا من قصة إبراهيم ، ثم من قصة لوط ، ثم من قصة شعيب ، ثم من قصة صالح - عليهم الصلاة والسلام - ...

قال - تعالى - : ونذهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنما منكم وجلون . قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشروني على أن مسنى الكبر فيم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق ولا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . قال فما خطبكم أيها المرساون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . إلا آل لوط إذنا لمنجوههم أجمعين . إلا امرأته قدرنا إنها لمن الفافرين ...

(و) ثم ختمت سورة الحجر بتسليية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه ، وأمرته بالصفح والعفو حتى يأتي الله بأمره ، وبشرته بأنه - سبحانه - سيكفيه شر أعدائه ، وبأنه سينصره عليهم ...

قال - تعالى - : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة آتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم . ولقد آتيناك سبعا من المشافى والقرآن العظيم . لاتمدن عينيك إلى ما متعنا به أولواجا منهم ولا تحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين

ومن هذا العرض الإجمالى للسورة الكريمة ، نراها قد اهتمت اهتماما واضحا بتثبيت المؤمنين دتهديد الكافرين ، تارة عن طريق الترغيب والترهيب ، وتارة عن طريق قصص السابقين ، وتارة عن طريق التأمل في

هذا السكون وما أشتمل عليه من مخلوقات تدل على وحدانية الله وعظيم قدرته
وسابغ رحمته

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المدينة المنورة - صباح الأربعاء

٩ من ربيع الثاني سنة ١٤٠٢ هـ - ٣ من فبراير سنة ١٩٨٢ م

المؤلف

محمد سيد طنطاوي

رئيس قسم التفسير بالدراسات العليا - الجامعة الإسلامية

التفسير

قال الله تعالى : « الر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَّمَا
يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرُّهُمْ يَا كُلُّوا وَيَتَمَتَّعُوا
وَيُلْبِثِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا
كِتَابٌ مُعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) وَقَالُوا
يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا
مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) وَاقْدِرْ أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ
وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلَمُوا فِيهِ
يَمْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ
مَسْحُورُونَ (١٥) » .

سورة الحجر من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجى « الر » .

وقد بينا - بشيء من التفصيل - عند تفسيرنا لسور : القرة ، وآل عمران ،
والاعراف . . .

آراء العلماء في هذه الحروف التي افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم .

وقلنا ما خلاصته : من العلماء من يرى أن المعنى المقصود منها غير معروف لأنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ..

ومنهم من يرى أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتشابه ، بل هي أسماء للسور التي أفتتحت بها ... أو هي حروف مقطعة بعضها من أسماء الله ، وبعضها من صفاته ...

ثم قلنا : ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض السور ؛ للإشعار بأن هذا القرآن الذي تحدى الله به المشركين ، هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التي يعرفونها ، ويقدرّون على تأليف الكلام منها ، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه في الفصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل .

وفضلا عن ذلك فإن تصدير بعض السور بمثل هذه الحروف المقطعة ، يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الانصات والتدبر ، لأنه يطرّق أسماعهم في أول التلاوة ألفاظ غير مألوّفة في مجارى كلامهم وذلك مما يلفت أنظارهم ليعتبروا ما يراود منها ، فيسمعوا حكايا وهدايات قد تسكون سديا في استجابتهم للحق ، كما استجاب صالحو الجن الذين حكى الله - تعالى - عنهم أنهم عندما استمعوا إلى القرآن قالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدي إلى الرشاد فأمنّا به ولن نشرك بربنا أحدا . . . » .

واسم الإشارة « تلك » يعود إلى الآيات التي تضمنتها هذه السورة ، أو إلى جميع الآيات القرآنية التي نزلت قبل ذلك .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم ، ولا بدح في هذا ، ذكر لمظ القرآن بعده ، لأنه - سبحانه - جمع له بين الأسمين تفخبا لهائه ، ومعظيا لقدره .

و « مبين » اسم فاعل من أبان الذي هو بمعنى بان ، مبالغة في الوضوح والظهور

قال صاحب الصحاح : يقال : بان الشيء بين يدينا ، أى اوضح ، فهو بين وكذا أبان الشيء فهو مبين . . . ، (١) .

والمعنى : تلك - أيها الناس - آيات بينات من الكتاب الكامل في جنسه ، ومن القرآن العظيم الشأن ، الواضح في حكمه وأحكامه ، المبين في هدايته وإعجازه فأقبلوا عليها والحفظ لها ، وبالعمل بتوجيهاتها ، لتنالوا السعادة في دنياكم وآخرتكم .

قال الألوسي : وفي جمع وصفي السكناية والقرآنية من تفخيم شأن القرآن ما فيه ، حيث أشير بالأول إلى اشتياله على صفات كمال جنس الكتب الإلهية فكأنه كلها ، وبالثاني إلى كونه ممتازا عن غيره ، نسيج وحده ، بديعا في بابه ، خارجا عن دائرة البيان ، قرآنا غير ذي عوج . . . ، (٢)

ثم بين - سبحانه - أن الكافرين سيئندمون بسبب كفرهم في وقت لا ينفع فيه الندم ، فقال - تعالى - : **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** . . .

قال الشوكاني ما ملخصه : قرأ نافع وعاصم بتخفيف الباء من ، ربما ، وقرأ الباقون بتشديدها . . . وأصلها أن تستعمل في القليل وقد تستعمل في الكثير .

قال الكورفيون : أى يود الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين .

وقيل : هى هنا للتقليل ، لأنهم ودوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها لشغلهم بالعذاب . . . ، (٣)

وقد حاول بعض المفسرين الجمع بين القولين فقال : من قال بأن ربما

(١) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ٢٠٠

(٢) تفسير فتح القدير ج ٣ ص ١٢١ .

هنا للتكثير نظر إلى كثرة تمنحهم أن لو كانوا مؤمنين ، ومن قال بأنها للتقليل نظر إلى قلة زمان إفاقتهم من العذاب بالنسبة إلى زمان دهشتهم منه ، وهذا لا ينافي أن التمتي يقع كثيرا منهم في زمن إفاقتهم الفليل ، فلا تخالف بين القولين (١)

والمعنى : ود الذين كفروا عندما تنكشف لهم الحقائق . فيعرفون أنهم على الباطل ، وأن المؤمنين على الحق ، أن لو كانوا مسلمين ، حتى ينجو من الخزي والعقاب .

ودخلت « رب » هنا على الفعل المضارع « بود » مع اختصاصها بالدخول على الفعل الماضي ، للإشارة إلى أن أخبار الله - تعالى - بمنزلة الواقع المحقق سواء أكانت للمستقبل أم لغيره .

قال صاحب الكشف : فان قلت : لم دخلت على المضارع « وقد أبوا دخولها إلا على الماضي ؟ قلت : لأن المترقب في أخبار الله - تعالى - بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه ، فكأنه قيل : ربما ود الذين كفروا... (٢)

و (لو) في قوله (لو كانوا مسلمين) يصح أن تكون اعتناعية ، وجوابها محذوف ، والتقدير : لو كانوا مسلمين لسروا بذلك .
ويصح أن تكون مصدرية ، والتقدير : ود الذين كفروا لو كانوا مسلمين .

وعلى كلا المعنيين فهي مستعملة في التمني الذي هو طلب حصول الأمر الممتنع الحصول .

وقال - سبحانه - (لو كانوا...) بفعل السكون الماضي ، للإشعاع بأنهم يودون الدخول في الإسلام ، بعد مضي وقت التمكن من الدخول فيه .

(١) حاشية الجبل على الجلالين بتصرف قليل ج ٣ ص ٥٣٧ .

(٢) تفسير الكشف ج ٣ ص ٣٨٦ .

وعبر — سبحانه — عن متمناهم بالغيبة (كانوا) ، نظرا لأن الكلام مسوق بصدد الإخبار عنهم ، وليس بصدد الصدور منهم ، ولو كان كذلك لقليل : لو كنا مسلمين .

هذا ، والمفسرين أقوال في الوقت الذي ود فيه الكافرون أن لو كانوا مسلمين ، فثم من يرى أن ودادتهم هذه تكون في الدنيا ، ومنهم من يرى أنها تكون عند الموت ، ومنهم من يرى أنها تكون عند الحساب ، وعند هو الله عن عصاة المؤمنين .

والحق أن هذه الودادة تكون في كل موضع يعرف فيه الكافرون بطلان كفرهم ، وفي كل وقت ينكشف لهم فيه أن الإسلام هو الدين الحق .

فهم تمنوا أن لو كانوا مسلمين في الدنيا ، عندما رأوا نصر الله لعباده المؤمنين ، في غزوة بدر وفي غزوة القتيح وفي غيرها ، فخرج ابن مسعود — رضي الله عنه — : ود كفار قريش ذلك يوم بدر حين رأوا نصر الله للمسلمين ، (١)

وهم تمنوا ذلك عند الموت كما حكى عنهم — سبحانه — ذلك في آيات كثيرة منها قوله — تعالى — : « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني لعلني أعمل صالحا فيما تركت » ... ، (٢)

وهم يتمنون ذلك عندما يعرضون على النار يوم القيامة . قال — تعالى — « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » ... ، (٣)

(١) تفسير الآلوسی ج ١٤ ص ٥٠

(٢) سورة المؤمنون الآية ٩٠

(٣) سورة الأنعام الآية ٢٧

وهم يتمنون ذلك عندما يرون عمارة المؤمنين ، وقد أخرجهم الله - تعالى برحمته من النار ، وقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث الدالة على ذلك منها :

ما أخرجه الطبراني عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن ناسا من أهل لا إله إلا الله ، يدخلون النار بذنوبهم ، فيقول لهم أهل اللات والعزى : ما أغنى عنكم قواكم (لا إله إلا الله) وأتم معنا في النار ؟

قال فيغضب الله لهم ، فيخرجهم ، فيلقونهم في نهر الحياة ، فينزلون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ، فيدخلون الجنة . ويسمون فيها الجمعيين .

فقال رجل : يا أنس ، أفنت سمعت هذا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ فقال أنس : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) نعم ، أنا سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم يقول هذا ^(١)

قال بعض العلماء : وأقوال العلماء في هذه الآية راجعة إلى شيء واحد ، لأن من يقول : إن الكافر لما احتضر تمنى أن لو كان مسلما ، ومن يقول أنه إذا عاين النار تمنى أن لو كان مسلما ...

كل ذلك راجع إلى أن الكفار إذا عاينوا الحقيقة ندموا على الكفر وتعذروا أنهم لو كانوا مسلمين ^(٢)

وفي هذه الآية ما فيها من تثبيت للمؤمنين ، ومن تبشيرهم بأنهم على الحق ،

(٢) راجع تفسير ابن كثير . المجلد الرابع ص ٤٣ ؛ طبعة دار الشعب
(٣) تفسير أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (ج ٣ ص ١١٧ للشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

ومن حض الكافرين على الدخول في الإسلام قبل فوات الأوان، ومن تحذير لهم من سوء عاقبة الكفر والطغيان .

ثم أمر - سبحانه - الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن يذرهم في طغيانهم يعمهون ، بعد أن ثبت أنهم قوم لا ينفع فيهم إنذار فقال - تعالى - : (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) .

و (ذر) فعل أمر بمعنى أترك ، ومضارع يذر ، ولا يستعمل له ماض إلا في النادر ، ومن هذا النادر ما جاء في الحديث الشريف : (ذروا الحبشة ما وذرتركهم) .

و (يتمتعوا) من المتاع بمعنى الانتفاع بالشئ ، بلذذ وعدم نظر إلى العواقب .

ويلههم : من الانشغال عن الشئ ونسيانه ، يقال : فلان الهاه كذا عن أداء واجبه . أى شغله .

والأمل : الرغبة في الحصول على الشئ ، وأكثر ما يستعمل فيما يستبعد حصوله .

والمعنى : أترك - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الكافرين ، وذرهم وشأنهم . ليأكلوا كما تأكل الأنعام ، وليتمتعوا بدنياتهم كما يشاءون ، وليشغلهم أملهم الكاذب عن أقباعك ، فسوف يعلمون سوء عاقبة صنيعهم في العاجل أو الآجل .

قال صاحب الكشف : وقوله ، ذرهم ، يعنى أقطع طمعك من رعوائهم ، ودعهم من النهى عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة ، وأتركهم ليأكلوا ويتمتعوا ، بدنياتهم ، وتنفيذ شهواتهم ووشغلتهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال . وألا يلقوا في العاقبة إلا خيرا ، فسوف يعلمون سوء صنيعهم^(١)

ولمّا أمره - سبحانه - بذلك ، لهدم الرجاء في صلاحهم ، بعد أن مكث فيهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - زمناً طويلاً ، يدعوهم إلى الحق ، بأساليب حكيمة .

وفي تقديم الأكل على غيره ، إيدان بأن تتمتعهم لأنما هو من قبيل تمتعهم ، ثم بالمسآكل والمشارب . قال - تعالى - : (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم)^(١) كما أن فيه تعبيراً لهم بما تعارفوا عليه من أن الاقتصار في الحياة على إشباع اللذات الجسدية ، دون التفات إلى غيرها من مكارم الأخلاق ، يدل على سقوط الهمة ، وبلادة الطبع . قال الخطيبه يهجو الزبرقان بن عمرو :

دع المسكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم البكاسى
أى : واقعد عن طلب المسكارم والمعالي فإنك أنت المطعوم المكسو من جهة غيرك .

والفعل : يأكلوا ، وما عطف عليه مجزوم في جواب الأمر « ذرهم » ، وبعضهم يجعله مجزوم بلام الأمر المحذوفة ، الدالة على التوعد والتهديد ، ولا يستحسن جعله مجزوماً في جواب الأمر ، لأنهم يأكلون ويتمتعون سواء أترك الرسول - صلى الله عليه وسلم - دعوتهم أم دعاهم .

والفاء في قوله - سبحانه - (فسوف يعلمون) للتفريع الدال على الزجر والإنذار . والاستجابة للحق قبل فوات الأوان .

أى : ذرهم فيما هم فيه من حياة حيوانية ، لا تفكر فيها ولا تدبر ، ومن آمال خادعة براقة شغلهم عن حقائق الأمور ، فسوف يعلمون سوء عاقبة ذلك وسوف يرون ما يحزنهم ويهقهم ويبيكهم طويلاً بعد أن ضحكوا قليلاً ... وفي ذلك إشارة إلى أن لإمامهم أجلاً معيناً ينقضى عنده ، ثم يأتيهم العذاب الأليم .

قال الآلوسى - رحمه الله - : وفى هذه الآية إشارة إلى أن التلذذ والتنعيم ، وعدم الاستعداد للآخرة ، والتأهب لها ، ليس من أخلاق من يطلب النجاة . وجاء عن الحسن : ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل .

وأخرجه أحمد فى الزهد ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - لا أعلمه إلا رفعه - قال : صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل وطول الأمل . وفى بعض الآثار عن على - كرم الله وجهه - : إنما أخشى عليكم إثنين : طول الأمل ، وأتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الآخرة ، وأتباع الهوى يصد عن الحق (١) .

هذا ، وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : وفذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاؤا يومهم الذى يوعدون (٢) .

وقوله - تعالى - : وفذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون (٣) .

وقوله - تعالى - : قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار (٤) .

ثم قرر - سبحانه - أن هلاك الأمم الظالمة ، موقوت بوقت محدد فى علمه ، وأن سنته فى ذلك ماضية لا تتخلف ، فقال - تعالى - : وما أهلكتنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون .

ود من ، فى قوله : من قرية ومن أمة ، للتأكيد . والمراد بالقرية أهلها . والمراد بالكتاب المعلوم : الوقت المحدد فى علم الله - تعالى - لهلاكها ، شبه بالكتاب لكونه لا يقبل الزيادة أو النقص . والأجل : مدة الشئ .

أى : وما أهلكتنا من قرية من اقربى الظالم أهلها ، إلا ولها كها وقت محدد فى علمنا المحيط بكل شئ . ومحال أن تسبق أمة من الأمم أجلها المقدر لها أو تتأخر عنه .

(١) تفسير الآلوسى ج ١ ص ٩ (٢) سورة الزخرف الآية ٨٣

(٣) سورة الطور الآية ٥ (٤) سورة إبراهيم الآية ٣٠

قال ابن جرير - رحمه الله - عند تفسيره لهاتين الآيتين ما ملخصه :
يقول - تعالى - ذكره - « وما أهلكنا » يا محمد « من ، أهل قرية ، من
القرى التي أهلكنا أهلها فيما مضى » إلا ولها كتاب معلوم ، أى : أجل مؤقت
ومدة معروفة ، لأنهم لم يهلكوا حتى يبلغوها ، فإذا بلغوها أهلكناهم عند ذلك ...
دون أن يتقدم هلاكهم عن ذلك أو يتأخر ، (١)

وجملة « إلا ولها كتاب معلوم » فى محل نصب على الحال من قرية ، وصح
ذلك لأن كل قرية وإن كانت منكورة ، إلا أن وقوعها فى سباق التنى سوغ
بجىء الحال منها .

أى : ما أهلكناها فى حال من الأحوال ، إلا فى حال بلوغها نهاية المدة
المقدرة لبقائها دون تقديم أو تأخير .

قال - تعالى - « ولكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة
ولا يستقدمون » (٢) وجملة « ما تسبق من أمة أجلها ... » بيان لجملة « إلا يلها
كتاب معلوم » لتأكيد التحديد ، فى بدئته وفى نهايته .

وحذف متعلق « يستأخرون » ، لعلم به ، أى : وما يستأخرون عنه .
والآيتان الكريمتان تدلان بوضوح ، على أن إمهال الظالمين ليس بمعناه
ترك عقابهم ، وإنما هو رحمة من الله بهم لعلهم أن يشوبوا إلى رشدهم ،
ويسلكوا الطريق القويم ...
فإذا ما لجوا فى طغيانهم ، حل بهم عقاب الله - تعالى - فى الوقت المحدد
فى علمه - سبحانه -

قال صاحب الظلال : ونقد يقال : إن أما لا تؤمن ولا نحسن ولا تصلح
ولا تعدل . وهى مع ذلك قوية نريه باقية وهذا وهم .

(١) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٥

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٤

فلابد من بقية من خير في هذه الأمم ، ولو كان هو خير العارة للأرض
وخير العدل في حدوده الضيقة بين أبنائها ، وخير الإصلاح المأذى والإحسان
المحدود بحدودها .

فعلى هذه البقية من الخير تعيش سنى قسنتفدها ، فلا تبقى فيها من الخير بقيه
ثم تنتهى حتى إلى المصير المعلوم . إن لاسنة الله لا تتخلف . ولكل أمة أجل
معلوم ، (١) .

ثم حكى - سبحانه - سوء أذى هؤلاء الكافرين مع رسولهم - صلى الله
عليه وسلم - فقال - تعالى - وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون .
لوما أتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين .
والقاتلون هم بعض مشركى قریش .

قال مقاتل : نزلت الآية . إن فى عبد الله بن أمية ، والنضر بن الحارث ،
ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة .

والمراد بالذكر : القرآن الكريم . قال - تعالى - وهذا ذكر مبارك
أنزلناه أفأنتم له منكرون ، (٢) .

مجنون : اسم مفعول من الجنون ، وهو فساد العقل .

ولوما : سوف تحضض مركب من لو المفيدة للتمنى ، ومن ما الزائدة
فأفاد المجسرع الحث على الفعل .

والمعنى : وقال الكافرون لرسولهم - صلى الله عليه وسلم - على سبيل
الاستهزاء والتهكم : يا أيها المدعى بأن الوحي ينزل عليك بهذا القرآن الذى

(١) تفسير فى ظلال القرآن ج ١٤ ص ٢١٦٦ للاستاذ سيد قطب .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٥٥ .

تتلوه علينا ، ، إنك مجنون ، بسبب هذه الدعوى التي تدعي . وبسبب طلبك منا اتباعك وتركنا ما وجدنا عليه آباءنا ...

هلا إن كنت صادقا في دعواك ، أن تحضر معك الملائكة ، ليخبرونا بأنك على حق فيما تدعيه ، وبأنك من الصادقين في تبليغك عن الله - تعالى - ما أمرك بتبليغه ؟

وأكدوا الحكم على الجنون بإن واللام ، لقصدهم تحقيق ذلك في نفوس السامعين ممن هم على شاكلتهم في الكفر والضلال ، حتى ينصرفوا عن الاستماع إليه - صلى الله عليه وسلم - .

قال الألوسي : يمتنون يا من يدعي مثل هذا الأمر العظيم ، الخارق للعادة إنك بسبب تلك الدعوى تحقق جنونك على أتم وجه . وهذا كما يقول الرجل لمن يجمع منه كلا يستبعده . أنت مجنون ، (١) فأنت ترى أن الآيتين السكريتين قد حكمتا ألوانا من سوء أدبهم منها :

مخاطبتهم له - صلى الله عليه وسلم - بهذا الأسلوب الذال على التهمك والاستخفاف ، حيث قالوا : يا أيها الذي نزل عليه الذكر ، مع أنهم لا يقرون بنزول شيء عليه :

ووصفهم له بالجنون ، وهو - صلى الله عليه وسلم - أرجح الناس عقلا ، وفضلهم فكريا ...

وشكهم في صدقه ، حيث طلبوا منه - على سبيل التعنت - أن يحضر معه الملائكة ليحاضدوه في دعواه كما قال تعالى في آيات أخرى منها قوله - تعالى - وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا . . . (٢) وقوله - تعالى - : لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، (٣)

(١) تفسير الألوسي ج ١٤ ص ١١ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٢١ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٧ .

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يكتبهم ويخرس ألسنتهم فقال: «ما ننزل
الملائكة إلا بالحق، وما كانوا إذا منظرين» .

وقرأ الجمهور «ما ننزل» - بفتح التاء والزاي على أن أصله تنزل - ورفع
الملائكة على النفاعلية .

وقرأ أبو بكر عن عاصم «ما ننزل» - بضم التاء وفتح الزاي على البناء
للجهمول - ورفع الملائكة على أنه نائب فاعل

وقرأ السكسائي وحفص عن عاصم «ما ننزل» - بنون في أوله وكسر
الزاي - ونصب الملائكة على المفعولية والباء في قوله «إلا بالحق» للملابسة .
أى : ما ننزل الملائكة إلا لنزيلا ملتبسا بالحق ، أى : بالوجه الذي تقتضيه
حكمتنا وجرت به سنتنا ، كأن ننزلهم لإهلاك الظالمين ، أو لتبليغ وحينا
إلى رسلنا ، أو لغير ذلك من التكاليف التي نزيدها وتقديرها ، ولتى لبس منها
ما اقترحه المشركون على رسولنا - صلى الله عليه وسلم - من قولهم «لو ما تأتينا
بالملائكة إن كنت من الصادقين» ، ولذا اقتضت حكمتنا ورحمتنا عدم
إجابة مقترحاتهم .

وقوله «وما كانوا إذا منظرين» بيان لما سيحل بهم فيما لو أجاب الله - تعالى -
مقترحاتهم .

و «إذا» حرف جواب وجزاء .

و «منظرين» من الإظهار بمعنى التأخير والتأجيل .

وهذه الجملة جواب جملة شرطية محذوفة، تفهم من سياق الكلام والتقدير :
ولو أنزل - سبحانه - الملائكة مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وبقي
هؤلاء المشركون على شركهم مع ذلك ، لعوجلوا بالعقوبة المدمرة لهم ،
وما كانوا إذا مهملين أو مؤخرين ، بل يأخذهم العذاب بفتة .

قال الإمام الشوكاني : قوله «وما كانوا إذا منظرين» في السلام محذوف .

والتقدير : ولو أنزلنا الملائكة لوجلوا بالعقوبة ، وما كانوا إذا منظرين .
فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحدوفة ، (١) .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - أنه قد تكفل بحفظ هذا القرآن الذي سبق للكافرين أن استمزوا به ، وبمن نزل عليه فقال - تعالى - : إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون . .

أى : إنا نحن بقدرتنا وعظم شأننا نزلنا هذا القرآن الذى أنهى كرمه ،
على قلب نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وإنا ، لهذا القرآن ، لحافظون . .
من كل ما يقدح فيه ، كالتحريف والتبديل ، والزيادة والنقصان والتناقض
والاختلاف ولحافظون له ، بالاعجاز ، فلا يقدر أحد على معارضته أو على
الاثبات بسورة من مثله ، ولحافظون له بقيام طائفة من أبناء هذه الأمة
الاسلامية باستظهاره وحفظه والذب عنه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

قال صاحب الكشف : قوله ، إنا نحن نزلنا الذكر ، رد لانكارهم
واستهزائهم فى قولهم ، يأمر الذى نزل عليه الذكر إنا نحن لجنون ، ، ولذلك
قال : إنا نحن ، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات ، وأنه هو الذى
بعث به جبريل إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - . ومن بين يديه ومن خلفه رصد
حتى نزل وبلغ محفوظا من الشياطين ، وهو حافظه فى كل وقت من كل زيادة
ونقصان . . . ، (٣) .

(١) تفسير فتح القدير ج ٢ ص ١٢٢ للشوكاني .

(٢) سورة الأنعام الآية ٨ .

(٣) تفسير الكشف ج ٢ ص ٣٨٨ .

وقال الآلوسی : ما ملخصه : لا يخفى ما في سبك الجملتين - إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون ، من البدلالة على كمال انكسار ياء الجلالة ، وعلى نفاة شأن التنزيل ، وقد أشتملتا على عدة من وجوه التأكيد . ونحن ، ليس ضمير فصل لأنه لم يقع بين أسمين ، وإنما هو إما مبتدأ أو توكيد لاسم إن . والضمير في دله ، للقرآن كما هو الظاهر ، وقيل هو للذي - صلى الله عليه وسلم ... ، (١)

هذا ونحن ننظر في هذه الآية السكرية ، من وراء نقرون الطويلة منذ نزولها فترى أن الله - تعالى - قد حقق وعده في حفظ كتابه ، ومن مظاهر ذلك :

١ - أن ما أصاب المسلمين من ضعف . ومن فتن ، ومن هزائم ، وعجزوا معها عن حفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ...

هذا الذي أصابهم في مختلف الأزمنة والأمكنة ، لم يكن له أي أثر على قداسة القرآن الكريم ، وعلى صيانه من أي تحريف .

ومن أسباب هذه الصيانة أن الله - تعالى - قبض له في كل زمان ومكان ، من أبناء هذه الأمة ، من حفظه عن ظهر قلب ، فاستقر بين الأمة بمسمع من النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وصار حفاظه بالعين عدد التواتر في كل عصر .

قال الفخر الرازي : فإن قيل : فلماذا اشتغل الصمابة بجمع القرآن في المصحف ، وقد وعد الله بحفظه ، وحافظه الله فلا خوف عليه ؟

فالجواب : أن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله - تعالى - إياه ، فإنه - سبحانه - لما إن حفظه قبضهم لذلك ... ، (٢)

٢ - أن أعاء هذا الدين - سواء أكانوا من الفرق الضالة المنحسبة للإسلام أم من غيرهم - امتدت أيديهم الأثيمة إلى أحاديث النبي - صلى الله

(١) تفسير الآلوسی ج ١٤ ص ١٥ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٩ ص ١٦٠ .

عليه وسلم - فأدخلوا فيها ما ليس منها ... وبذل العلماء العدول الضابطون ما بذلوا من جهود لتفقيح السنة النبوية بما فُتِلَ هؤلاء الأعداء ...

ولكن هؤلاء الأعداء، لم يقدروا على شيء واحد، وهو لإحداث شيء في هذا القرآن، مع أنهم وأشباههم في الضلال، قد أحدثوا ما أحدثوا في السكتب السبوية السابقة ...

قَالَ بعض العلماء . سئل القاضي إسماعيل^(١) البصري عن السر في تطرق التغيير للسكتب السبوية وسلامة القرآن من ذلك فأجاب بقوله : إن الله أو كل للأخبار حفظاً كتبهم فقال : ه بما استحفظوا من كتاب الله ، وتولى - سبحانه - حفظ القرآن بذاته فقال : إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ،^(٢) .

وقد ذكر الامام القرطبي ما يشبه ذلك نقلاً عن سفيان بن عيينه في قصة طويلة^(٣) .

والخلاصة ، أن سلامة القرآن من أي تحريف - رغم حرص الأعداء على تجريفه - ورغم ما أصاب المسلمين من أحداث جسام ، ورغم تطاول القرون والدعور - دليل ساطع على أن هناك قوة خارقة - خارقة عن قوة البشر - قد تولت حفظ هذا القرآن ، وهذه القوة هي قوة الله - عز وجل - ولا يماوى في ذلك إلا العنيد الجهول ...

(١) هو القاضي إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد الأزدي البصري ولد سنة ٢٠٠ هـ وتوفي سنة ٢٨٣ . كان من الأئمة الأعلام في التفسير والحديث والفقه .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١٤ ص ٢١ اسماحة الشيخ محمد الطاهر : ابن عاشور .

(٣) راجع تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٥٥ .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك من الآيات ما فيه تعزیه وتسدية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من سفهاء قومه ، فأخبره بأن ما أصابه منهم يشبه ما فعله المكذبون السابقون مع رسولهم ، فقال - تعالى - ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون .

كذلك نسلك في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين .

قال الجمل : لما أساؤا في الأدب ، وخاطبوه - صلى الله عليه وسلم - خطاب السفاهة ، حيث قالوا له : : إنك لمجنون ، ، سلاه الله فقال له : : إن عادة الجهال مع جميع الأنبياء كانت هكذا ، وكانوا يصبرن على أذى الجهال . ويستمررون على الدعوة والانذار ، فافتد أنت بهم في ذلك ... ،^(١)

والشيع جمع شيعه وهى الطائفة من الناس المتفقة على طريقة ومذهب واحد ، من شاعه إذا تبعه . وأصله - كما يقول القرطبي - مأخوذ من الشيع وهو الخطب الصغار فوجد به الكبار .

والمعنى : ولقد أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - رسلا كثيرين ، في طوائف الأمم الأولين ، فدعا الرسل أقوامهم إلى مادعوت إليه أقت قومك من وجوب إخلاص العباداة لله - تعالى - ، فما كان من أولئك المدعوين السابقين إلا أن قابلت كل فرقة منهم رسولها بالسخريل والاستهزاء ، كما قابلت سفهاء قومك .

وذلك لأن المكذبين في كل زمان ومكان يتشابهون في الطباع الذميمة ، وفي الأخلاق القبيحة . : كما قال - تعالى - : وكذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به ، بل هم قوم طاعون ،^(٢) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٢ ص ٥٢٩

(٢) سورة الذاريات الآيتان ٥٢ ، ٥٣

والجار والمجرور ، من قبلك ، متعلق بأرسلنا ، أو يحذف وقع نعتا
لمفعوله المحذوف ، أى : لقد أرسلنا رسلا كاثرة من قبلك .

وإضافه الشيع إلى الأولين من إضافة الموصوف إلى صفته عند بعض
النحاة ، أو من حذف الموصوف ، عند البعض الآخر ، أى شيع الأمم الأولين .
وعبر بقوله - سبحانه - ، إلا كانوا به يستهزئون ، للإشعار بأن الاستهزاء
بالرسل كما طبيعة فيهم - كما يوحى إليه لفظ كان ، وأنه متكرر منهم - كما
يفيده التعبير بالفعل المضارع - والكاف في قوله ، كذلك نسلكه ، ، للتشبيه ،
واسم الإشارة ، ذلك ، يعود إلى السلك المأخوذ من نسلكه .

والسلك مصدر سلك - من باب نصر - وهو إدخال الشيء فى الشيء ،
كإدخال الخيط فى الخيط .

والضمير المنصوب فى ، نسلكه ، يعود إلى القرآن الكريم الذى سبق
الحديث عنه .

أراد بالمجرمين فى قوله ، فى قلوب المجرمين ، مشركو قریش ومن لف لفهم .
والمفعول : كما سلكنا كتب الرسل السابقين فى قلوب أولئك المستهزئين
نسلك القرآن فى قلوب هؤلاء المجرمين من قومك يا محمد ، بأن نجعلهم يسمعون
ويفهمونه ويدركون خصائصه دون أن يستقر فى قلوبهم استقرار تصديق
وإذعان ، لاستيلاء الجحود والعناد والحسد عليهم .

وقوله ، لا يؤمنون به ، بيان للسلك المذهب به ، أوحال من المجرمين .

أى : أدخلنا القرآن فى قلوبهم ففهموه ، ولكنهم لا يؤمنون به عنادا
وجحودا .

وعلى هذا التفسير يكون الضمير فى ، نسلكه ، وفى ، به ، يعودان إلى القرآن
الكريم ، الذى سبق الحديث عنه فى قوله - تعالى - ، إنا نحن نزلنا الذكر
وإنا له لحافظون ، .

ومن المفسرين الذين ذكروا هذا الوجه ولم يذكروا سواه صاحب
الكشاف ، فقد قال : « والضمير في قوله « فذلك » ، للذكر : أى : مثل ذلك
السلك ونحوه نسلك الذكر ، في قلوب المجرمين ، على معنى أن يلقيه في قلوبهم
مكذبا مسنونا به غير مقبول ، كما لو أنزلت بالنيهم حاجة فلم يجبهك إليها : فقلت :
كذلك أنزلها بالتمام : معنى مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية .

ومحل قوله « لا يؤمنون به » ، النصب على الحال ، أى : غير مؤمن به . أو
هو بيان لقوله « كذلك نسلكه .. » (١)

وقد ذكرى هذا الوجه صاحب الانتصاف فقال : والمراد - واقه أعلم -
لإقامة الحجة على المكذبين ، بأن الله - تعالى - سلك القرآن في قلوبهم ، وأدخله
في سويدائهم ، كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدقين ، فكذب به هؤلاء ،
وصدق به هؤلاء . كل على علم وفهم . ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى
عن بينة ... ، ولئلا يكون للكفار حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما
فهموا من آمن ... » (٢)

ويرى بعض المفسرين - كالإمام ابن جرير - أن الضمير في نسلكه يعود
إلى الكافر الذى سلكه الله في قلوب المكذبين السابقين ، أما الضمير في « به » ،
فيعود إلى القرآن الكريم ، فقد قال :

قوله - تعالى - « كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به ... »
يقول - تعالى - ذكره - كما سلكنا الكافر في قلوب شيع الأولين بالاستهزاء
بالرسل ، بذلك نفعل ذلك في قلوب مشركى قومك الذين أجرموا بسبب
الكفر باقته .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٨٨

(٢) حاشية الكشاف ج ٧ ص ٣٨٨

« لا يؤمنون به » ، يقول : لا يصدقون بالذکر الذي أنزل إليك ... (١) .

ويع أن هذا التفسير الذي ارتضاه شيخ المفسرين ابن جرير له وجاهته ، إلا أننا نميل إلى التفسير الأول الذي ارتضاه صاحب الكشف ، لأنه المتبادر من معنى الآية ، ومن المفسرين الذين رجحوا ذلك الفخر الرازي ، فقد قال - رحمه الله - خلال كلام طوياً ما ملخصه : « التأويل الصحيح أن الضمير في قوله - تعالى - « كذلك نسلكه » ، عائد إلى الذكر ، الذي هو القرآن ، فإنه - تعالى - قال : قبل هذه الآية « إنما نحن نزلنا الذكر » ، وقال بعده « وكذلك نسلكه » أي : هكذا نسلك القرآن في قلوب المجرمين .

والمراد من هذا السلك ، هو أنه - تعالى - يسميهم بهذا القرآن ، ويخلق في قلوبهم حفظه والعلم بمعانيه ، إلا أنهم مع هذه الأحوال لا يؤمنون به عنادا وجهلاً ... ،

ويدل على صحة هذا التأويل ، أن الضمير في قوله « لا يؤمنون به » ، عائد على القرآن بالإجماع ، فوجب أن يكون الضمير في « نسلكه » ، عائداً إليه - أيضاً - لأنهما ضميران متعاقبان فيجب عودهما إلى شيء واحد ... (٢) ، وقوله - سبحانه - « وقد خلت سنة الأولين » ، تهديد لهؤلاء المكذبين من كفار مكة ومن سار على شاكلتهم ، وتكملة للتسليمية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم .

أي : وقد مضت سنة الله التي لا تختلف وطريقته المألوفة بأن ينزل عذابه بالمجرمين ، كما أنزله بالأمم الماضية ، بسبب تكذيبها لرسولها ، واستهزائها بهم فلا تحزن - أيها الرسول الكريم - لما أصابك من سفهاء قومك فسننصرك عليهم .

(١) تفسير ابن جرير ج ٤ ، ص ٩

(٢) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٩ ص ٦٣ طبعة عبد الرحمن محمد

وأضاف - سبحانه - السنة إلى الأزلين ، باعتبار تعلقها بهم ، وإنما هي سنة الله فيهم لأنها المقصود هنا ، والإضافة لأدنى ملائسة .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات السكرية ، برسم صورة عجيبة لعناد هؤلاء الكافرين والجحودهم للحق بعدما تبين فقال : ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون .

وقوله - سبحانه - ولو فتحنا عليهم بابا من السماء ... ، معطوف على قوله لا يؤمنون به .. ، لإبطال ما ذيرهم ، ولبيان أن سبب عدم إيمانهم هو الجحود والعناد ، وليس نقصان الدليل والبرهان على صحة ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - .

قال الإمام الرازي . وقوله - تعالى - فظلوا فيه يعرجون ، يقال : ظل فلان نهاره يفعل كذا ، إذا فعله بالنهار ، ولا تقول العرب ظل يظل إلا لكل عمل بالنهار ، كما لا يقولون بات يبيت إلا بالليل . والمصدر الظلوى ، (١) .

ويعرجون : من العروج ، وهو الذهاب في صعود ، وفعله من باب دخل ، يقال عرج فلان إلى الجبل يعرج إذا صعد ، ومنه المعراج والمعارج أي المصاعد .

وقوله . سكرت ، من السكر - بفتح السين المشددة وسكون المكاف - بمعنى السد والخبس والمنع . يقال سكرت الباب أسكره سكرًا ، إذا سدته ، والذئيد في سكرت ، الدالة . وهو قراءة الجمهور . وقرأ ابن كثير . سكرت . بكسر المكاف بدون تشديد .

وقوله . مسحورون ، اسم مفعول من السحر . بمعنى الخداع والتخييل والنصرف عن الشيء إلى غيره :

والمعنى : أن هؤلاء المشركين بلغ بهم الغلو في الكفر والعناد ، أننا لو فتحنا

لهم بابا من أبواب السماء ، ومكناهم من الصعود إليه ، فظلوا في ذلك الباب يصعدون ، ويطلعون على ملكوت السموات وما فيها من الملائكة والعجائب فقالوا بعد هذا التمكين والإطلاع - لنرط عنادهم وجحورهم - ، لننمنا أبصارنا منعت من الإبصار ، وما نراه ما هو إلا لون من الخداع والتخييل والصرف عن إدراك الحقائق بسبب سحر محمد - صلى الله عليه وسلم - لنا وعلى هذا التفسير الذي سار عليه جمهور المفسرين ، يكون الضمير في قوله « فظلوا » يعود إلى هؤلاء المشركين المعاندين .

وقيل الضمير للملائكة ، فيكون المعنى : فظل الملائكة في هذا الباب يمرجون ، والكفار يشاهدونهم وينظرون إليهم ، فقالوا - أي الكفار - بعد كل ذلك ، « إنما سكرت أبصارنا ... »

وعلى كلا الرأيين فالآية السكرية تصور أكل تصوير ، مكابرة الكافرين وعنادهم المزرى .

وعبر - سبحانه - بقوله « فظلوا » ، ليدل على أن عروجهم كان في وضوح النهار ، بحيث لا يخفى عليهم شيء مما يشاهدونه .

« رجعوا في قوهم بين أداة الحصر » ، أي « وبين أداة الإضراب » بل ، للدلالة على البت بأن ما يرونه لاحقية له ، بل هو باطل ، وما يرونه ما هو إلا من تخيلات المسحور .

وقالوا « بل نحن قوم مسحور » ولم يقولوا بل نحن مسحورون ، للاشعار بأن السحر قد تمكن منهم جميعا ، ولم يخص بعضا منهم دون بعض .

قال الشوكاني : وفي هذا بيان لعنادهم العظيم الذي لا يقامهم عنه شيء من الأشياء كانتا ما كان ، فإنهم إذا رأوا آية توجب عليهم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، نسبوا إلى أبصارهم أن إدراكها غير حقيقي لعارضي الإنسداد

أو أن سقر لهم قد سحرت فصار إدراكهم غير صحيح . ومن بلغ في التعنت إلى هذا الحد ، فلا تنفع فيه موعظة ولا يهتدى بآية ، (١)

وبذلك نجد الدعوة الكريمة قد حدثتنا في خمس عشرة آية من مطلعها إلى هنا ، عن سمو منزلة القرآن الكريم ، وعن حسرات الكافرين يوم تتجلى لهم الحقائق ، وعن استهزائهم بالرسول - صلى عليه وسلم - ، وعن رد القرآن عليهم ؛ وعن تسلية الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم

ثم إننا نلت السورة بعد ذلك ، فسأقت ألواناً من النعم الدالة على وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته ، وبديع صنعه ، وشهول علمه ، فقال - تعالى - .

« وَاَقْدَجَعَلْنَاهُ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيْنًا هَا لِلنَّازِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مَبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ، وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَافِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَا كُوهَ مَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَاقْدَعَلْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَاقْدَعَلْنَا الْمُسْتَأَخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يُخْشِرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) » .

قال الإمام القرطبي ما ملخصه : لما ذكر - سبحانه - كفر الكافرين ، وعجز أصنامهم ، ذكر كمال قدرته ليستدل بها على وحدانيته .

والبرج : القصور والمنازل . قال ابن عباس . أى جعلنا فى السماء بروج الشمس والقمر ، أى : منازل لهما . وأسماء هذه البروج : الحمل والثور والجوزاء والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي والدلو ، والحوت .

والعرب تعد المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم ، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجذب ...

وقال الحسن وقتاده : البروج : النجوم ، وسميت بذلك لظهورها
وإرتفاعها ...

وقبل البروج : الكواكب العظام ... ،^(١)

قال بعض العلماء: ومرجع الأقوال كلها إلى شيء واحد، لأن أصل البروح في اللغة الظهور، ومنته قهرج المرأة، بإظهار رزبتها، فالكواكب ظاهرة، والقصور ظاهرة، ومنازل الشمس والقمر كالقصور مجاميع أن الكل من ينزل فيه. (٢)

و، جعلنا، أى خلقنا وأبدعنا، فيكون قوله وفى السماء، متعلقاً بمحذوف على أنه مفعول ثان له و، بروجاء، هو المفعول الأول.

ای : ولقد خلقنا وأبدعنا منازل وطرقا في السماء ، تسير فيها الكواكب
بقدرتنا ، وإرادتنا ، وحكمتنا . دین خلل أو اضطراب .

وفى ذلك الخلق ما فيه من منافع لكم ، حيث تستعملون هذه البروج فى ضبط المواقيت وفى يد الجهات ، وفى غير ذلك من المنافع ، كما قال - تعالى -

(۱) تفسیر القرطبی ۱: ۹

(٢) تفسير أضواء البيان ٣: ١٢٠ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي

هو الذي جعل الشمس ضياء ، والقمر نورا وقدره منازل ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لعلهم يعلمون ، (١) وافتتح - سبحانه - الآية الكريمة بلام القسم وقد ، تنزيلا للدخاطلين للذاهلين عن الالتفات إلى مظاهر قدرة الله - تعالى - منزلة المنكرين ، فأكد لهم اكلام مؤكدين ليثبتوها ويعتبروا .

والضمير في قوله ، وزيناها . . . ، يعود إلى السماء . أي : وزينا السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والأضواء ، لتكون جميلة في عيون الناظرين إليها ، وآية للمتفكرين في دلائل قدرة الله - تعالى - وبديع صنعته .

وهذه الجملة الكريمة ، تلفت الأنظار إلى أن الجمال غاية مقصودة في خلق هذا الكون ، كما تشتمل المؤمنين بأن من الواجب عليهم أن يجعلوا حياتهم مبنية على الجمال في الظاهر وفي الباطن ، تأسيسا بسنة الله - تعالى - في خلق هذا الكون .

ثم وضح - سبحانه - بأن هذا الزين للسماء ، مقرون بالحفظ والتصيانة والطهارة من كل رجس فقال - تعالى - وحفظناها من كل شيطان رجيم .

والمراد بالشيطان هنا : المتمرد من الجن ، مشتق من شطن بمعنى بعد ، إذ الشيطان بعيد بطبعه عن كل خير .

والرجيم ، أي المرجوم المحقر ، مأخوذ من الرجم ، لأن العرب كانوا إذا احتقروا أحدا رجوه بالقطع من الحجارة ، وقد كان العرب يرجمون قهر أبي رغال الثقفي ، الذي أرشد جيش الحبشة إلى مكة لهدم الكعبة . قال جرير :

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قهر أبي دغان

والمعنى : ولقد جعلنا في السماء منازل وطرقا للكواكب ، وزيناها -
أى السماء - للناظرين اليها ، وحفظناها من كل شيطان محقر مطرود من رحمتنا
بأن منعناه من الإستقرار فيها ، ومن أن ينثف فيها شروده ومفاسده ، لأنها
موطن الاخيار الأطهار .

قال - تعالى - : **لَا زِينَةَ لِلدِّينِ إِلَّا السَّكِينَةُ** وحفظنا من كل
شيطان مارد ، (١)

وقال - تعالى - : **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُحُومًا
لِّلشَّيَاطِينِ** ، (٢)

وقوله - سبحانه - : **إِلَّا مَن إِسْتَرَقَ السَّمْعَ** فأتبعه شهاب مبین ، فى محل
نصب على الإستثناء **إِسْتَرَقَ السَّمْعَ** : إختلاس السمع : والمراد به :
الاستماع إلى المتحدث خفية ، حتى لسكان المستمع يسرق من المتكلم كلامه
الذى يخفيه عنه ، فالسمع هنا بمعنى المسموع من الكلام والشهاب : هو
الشعلة الساطعة من النار ، المنفصلة من الكواكب التى ترى فى السماء ليلا ،
كانها كوكب ينقض بأقصى سرعة . وجمعه شهب . أصله من الشهية ،
وهى بياض مختلط بسواد .

و مبین ، أى ظاهر واضح للبصرين .

والإستثناء منقطع ، فيكون المعنى : وحفظنا السماء من كل شيطان رديم
لكن من إختلاس السمع من الشياطين ، بأن حاول الإقتراب منها ، فإنه يتبعه
شهاب واضح للناظرين فيحرقه ، أو يحول يمينه وبين إستراق السمع .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : **إِلَّا مَن إِسْتَرَقَ السَّمْعَ** فأتبعه شهاب مبین
أى . لكن من استرق السمع ، أى الخطفة السيرة ، فهو إستثناء منقطع .

(١) سورة الصافات الآيتان ٦ ، ٧

(٢) سورة الملك الآية ٥

وقيل : هو متصل ، أى : إلا من استرق السمع . أى : حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحي وغيره ، إلا من استرق السمع فإنما لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحي ، فأما الوحي فلا يسمع منه شيئا لقوله - تعالى - : **لأنهم عن السمع لمعزولين** ،

وإذا استمعوا الشياطين إلى شيء ليس بوحى ، فإنهم يقذفونه إلى السمكة في أسرع من طرفه عين ، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخيلهم ... (١) وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : **إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملائكة الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب** ، (٢)

قال بعض العلماء ما ملخصه : والمقصود منع الشياطين من الاطلاع على ما أراد الله عدم اطلاعهم عليه .. وربما استدرج الله - تعالى - الشياطين وأولياهم ، فلم يمنع الشياطين من استراق شيء قليل يلقونه إلى الكهان ؛ فليسا أراد - سبحانه - عصمة الوحي منهم من ذلك بتاتا ..

وفي سورة الجن دلالة على أن المنع الشديد من استراق السمع كان يعد البعثة النبوية ، وبعد نزول القرآن ، لحكما لحفظ الوحي من أن يلتبس على الناس بالكهانة ...

قال - تعالى - : **وأنما لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا** ، (٣) .

وعلى ذلك يكون ما جاء في بعض الأحاديث من استراق الجن السمع وصفا للكهانة السابقة ، ويكون قوله - صلى الله عليه وسلم - **ليسوا بشيء ...** ، وصفا لآخر أمرهم ..

(١) تفسير القرطبي ١٠ ص ١١

(٢) سورة الصافات الآيات ٦ : ٥ (٣) سورة الجن الآيات ٨ ، ٩

ففي صحيح البخارى عن عائشة : أن فاسا سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الكهانة ، فقال : « ليسوا بشيء » .

- أى لا وجود لما يزعمون - . ففيل : يا رسول الله ، فإنهم يحدثون^١ جماعا بالشئ فيسكون حقا ،

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : تلك الكلمة من الحق يخطفها أنجى فيقرها في أن وليه قر الدجاجة - أى فيلقبها بصوت خافت كالـدجاجة- عندما تخفي صرتها - فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة^(١) .

وبعد ان بين - سبحانه - بعض الدلائل السماوية الدالة على قدرته ووحدةانيته ، أتبع ذلك ببيان بعض الدلائل الأرضية فقال - تعالى - :
والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . .
وقوله : رواسي ، من الرسو وهو ثبات الأجسام الثقيلة . يقال رسا الشئ يرسو أى ثبت .

أى : ومن الأدلة - أيضا - على وحدانيتنا وقدرتنا ، أننا مددنا الأرض وفرشناها وبسطناها ، لتميس لـكم الحياة عليها قال - تعالى - :
والأرض فرشناها فنعم المهادون^(٢) .

وأنتا - أيضا - وضعنا فيها جبالا ثوابت راسخات تمكها عن الاضطراب وعن ان تميد بكم . قال - تعالى - :
« خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقا في الأرض رواسي أن تميد بكم »^(٣) .

وأنتا - أيضا - أنبتنا في الأرض من كل شيء موزون ، أى : مقدر بمقدار معين وموزون بميزان الحكمة ، بحيث تنوفر فيه كل معاني الجمال والتناسق .
قال - تعالى - :
« إن كل شيء خلقناه بقدر »^(٤) .

(١) راجع تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ج ١ ص ٢٤

(٢) سورة الذاريات الآية ٤٨

(٣) سورة القمر الآية ٤٩

(٤) سورة لقمان الآية ١٠

وأفنا - كذلك - وجعلنا لكم فيها معاش . . . ، والمعاش - جمع معيشة ،
وهي في الأصل مصدر عاش يعيش عيشا وعيشة ومعاشاً ، ومعيشة ، إذا صار
ذا حياة . ثم أستعمل هذا اللفظ فيما يعاش به ، أو فيما يتوصل به إلى العيش .
أى : وجعلنا لكم في الأرض ما تعيشون به من المطاعم والمشارب والملابس
وغيرها ، مما تقتضيه ضرورات الحياة التي تحييونها .

وجملة - ومن لستم له برازقين ، معطوفة على - معاش . .
والمراد بمن لستم له برازقين : ما يشمل الأطفال والعجزة والأنعام وغير
ذلك من مخلوقات الله التي تحتاج إلى العون والمساعدة .

أى : وجعلنا لكم في الأرض ما تعيشون به أو ما تتوصلون به إلى ذلك من
المكاسب والتجاراات ، وجعلنا لكم فيها - أيضا - من لستم له برازقين من العيال
والخدم والدواب . . . ، وإنما الرازق لهم هو الله - تعالى - رب العالمين ، إذ
ما من دابة في الأرض إلا على الله وحده رزقها . وما يرزقه الجاهلون من أنهم
هم الرازقون لغيرهم ، هو لون من الغرور والافتراء ، لأن الرازق للجميع
هو الله رب العالمين .

وعبر عن في قوله - ومن لستم ، تعليلها للعقلاء على غيرهم .

قال الإمام ابن كثير : والمقصود - من هذه الجملة - أنه - تعالى - يمتن
عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب ، وصنوف المعاشات
وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها ، والأنعام التي يأكلونها ، والعبيد
والإماء التي يستخدمونها ، ورزقهم على خالقهم لا على أيديهم ، فلهم هم المنفعة ،
والرزق على الله - تعالى - ، (١) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن كل شيء في هذا الكون ، خاضع لإرادته

وقدرته . وتصرف . . فقال - تعالى - « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

و « إن » نافية بمعنى ما ، و « من » مزيدة للتأكيد ، و « خزائنه » جمع خزائن ، وهى فى الأصل تطلق على المكان الذى توضع فيه نفائس الأموال للمحافظة عليها .

والمعنى : وما من شيء من الأشياء الموجودة فى هذا الكون ، الذى يتطلع الناس إلى الانتفاع بها . إلا ونحن قادرون على إيجادها وإيجاد أضعافها بلا تكلف أو إبطاء ، كما قال - تعالى - : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » (١) .

فقد شبه - سبحانه - اقتداره على إيجاد كل شيء ، بالخزائن المودعة فيها الأشياء ، والمعدة لإخراج ما يشاء لإخراجه منها بدون كلفة أو إبطاء .

والمراد بالإنزال فى قوله . وما ننزله إلا بقدر معلوم : الإيجاد والإخراج إلى هذه الدنيا ، مع تمكين الناس من الحصول عليه .

أى : وما نخرج هذا الشيء إلى حين الوجود بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به إلا ملتبسا بمقدار معين ، وفى وقت محدد . فقتضيه حكمتنا ، وتستدعيه مشيئتنا ، ويتناسب مع ساجات العباد وأحوالهم ، كما قال - تعالى - « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير » (٢) .

ثم أنتقل - سبحانه - من الاستدلال على وحدانيته وقدرته بظواهر السماء و بظواهر الأرض ، إلى الاستدلال على ذلك بظواهر الرياح والأمطار فقال - تعالى - : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أقم له بخازنين ، والآية للكرامة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : « وجعلنا

لسم فيها ما يش ، وما بينهما أعترض لتحقيق ما سبق ذكره . - سَمِعَ
والمراد بإرسال الرياح هنا : نقلها من مكان إلى آخر بقدره الله - تعالى -
وحكمته .

وقوله « لواقع » ، يصح أن يكون جمع لاقح . وأصل اللاقح : الناقه التي
قبلت اللقاح فحملت الجنين في بطنها . .

ووصف - سبحانه - الرياح بكونها لواقع ، لأنها حوامل تحمل ما تكن . ن
سببا في نزول الأمطار كما تحمل النوى الأجنبية في بطونها .

أى : وأرسلنا بقدرتنا ورحمتنا الرياح حاملة للسحاب وللأمطار وغيرهما ،
مما يعود على الناس بالنفع والخير والبركة .

ويصح أن يكون لفظ « لواقع » ، جمع ملقح - اسم فاعل - وهو الذى يلقح
غيره ، فتكون الرياح ملقحة لغيرها كما يلقح الذكر الأنثى .

قال الإمام ابن كثير : قوله « وأرسلنا الرياح لواقع » ، أى : تلقح السحب
فتدبر ماء . وتلقح الأشجار فتنتفخ عن أوراقها وأكمامها ، (١) .

وقال بعض العلماء : ومعنى الإلقاح أن الرياح تلقح السحاب بالماء توجيه
عمل الحرارة والبرودة متعاقبين ، فينشأ عن ذلك البخار الذى يصير ماء فى الجو ،
ثم ينزل مطرا على الأرض ، وأنها تلقح الشجر ذى الثمرة ، بأن تنقل إلى نوره
غبرة دقيقة من نور الشجر الذكر ، فتصلح ثمرته أو تثبت . . .

وهذا هو الإibar . وبعضه لا يحصل إلا بتعليق الطلع الذكر على الشجرة
المثمرة . وبعضه يكتفى منه بغرس شجرة ذكر فى خلال شجر الثمر .

ومن بلاغة الآية الكريمة ، يراد بهذا الوصف - لواقع - لإفادة كلا

العملين الذين تحملهما الرياح - وهما الحمل للسحاب وسدر وغيرهما ، أو التلقيح لغيرها - . . . (٢) .

وقوله : فأزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه تفريع على ما تقدم .

أى : وأرسلنا الرياح بقدرتنا من مكان إلى آخر ، حالة كونها حاملة للسحاب وغيره ، فأزلنا - بسبب هذا الحمل - من جهة السماء ، ماء كثيراً هو المطر ، لتنتفعوا به في شربكم ، وفي معاشكم ، وفي غير ذلك من ضرورات حياتكم .

قال - تعالى - : هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسمين . ينبت لكم به الزرع والزيتون والتبختيل والأعناب ومن كل النمرات (٣)

وقوله : وما أتمم له بخازنين ، تتميم لنعمة إزال الماء .

أى : أنزلنا المطر من السماء ، وليست خزائنه عندهم ، وإنما نحن الخازنون له ، ونحن الذين نزلناه متى شئنا ، ونحن الذين نعمناه متى شئنا ، كما قال - تعالى - قبل ذلك : . . . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . .

وبصح أن يكون المعنى : أنزلنا المطر من السماء فجعلناه لسقياكم ، وأتمم بقدارين على خزنه وحفظه فى الآبار والعيون وغيرها ، وإنما نحن القادرون على ذلك قال - تعالى - : وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسقيناكمه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ، (٤) .

(١) تفسير التحرير والتوير ج ١٤ ص ٣٨ لسباحة الشب الإمام محمد الطاهر بن عاشور .

(٢) سورة النحل الآيتان ١٠ ، ١١

(٣) سورة المؤمنون الآية ١٨

م بين - سبحانه - أن الإحياء والإماتة بيده وحده ، فقال - تعالى - :
« ولما لنحن نحي ونميت ونحن الوارثون » .

أى : ولما وحدنا القادرون على إيجاد الحياة فى المخلوقات ، والقادرون على سلبها عنها ، ونحن الوارثون لهذا الـكون بعد فئائه ، الباقون بعد زواله .

قال - تعالى - : « ولما نحن نحي ونميت ولما لنا المصير » (١) .

وقال - تعالى - : « ولما نحن نرت الأرض ومن عليها ولما نرجعون » (٢) .
وشبهه - سبحانه - بقاءه بعد زوال كل شىء سواه بالوارث ، لأن الوارث هو الذى يرث غيره بعد موته .

وأكد - سبحانه - الآية الكريمة بآيات واللام وضمير الفصل « نحن » تحقيقاً للخبر الذى اشتملت عليه ، وردا على المشركين الذين زعموا أنه لا حياة ولا ثواب ولا عذاب بعد الموت :

ثم أكد - سبحانه - شموله لـكل شىء بعد أن أكد شمول قدرته فقال - تعالى - : « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » .

والمراد بالمستقدمين من تقدم على غيره ولادة وموتها ، كما أن المراد بالمستأخرين من تأخر عن غيره فى ذلك ، ولم يمت بعد ، أو لم يوجد بعد فى عالم الأحياء .

والسين والتاء فى اللفظين للتأكيـد .

وقيل : المراد بهما الأحياء والآموات ، وقيل المراد بالمستقدمين : من تقدم فى الوجود على الأمة الإسلامية ، وبالمستأخرين : الأمة الإسلامية .

(١) سورة قى الآية ٤٣ .

(٢) سورة مريم الآية ٤٠ .

وقيل : المراد بهما : من قتل في الجهاد وعن لم يقتل ، وقيل المراد بهما من تقدم في صفوف الصلاة ومن تأخر ...

قال الامام ابن جرير بعد أن ساق جملة من الأقوال في ذلك : وأولى الأقوال عندى بالصحة ، قول من قال : ولقد علمنا الأموات منكم يا بنى آدم فتقدم موته ، ولقد علمنا المستأخرين الذين تأخر موتهم ممن هو حي ومن هو حادث منكم ممن لم يحدث بعد ... (١)

ثم بين - سبحانه - أن مرجع الخلق جميعا إليه فقال : وإن ربك هو يحشرهم ، إنه حكيم عليم .

أى : وإن ربك - وحده - أيها المخاطب - هو الذى يتولى حشر الأولين والآخرين ، وجمعهم يوم القيامة لنحساب والثواب والعقاب ، إنه - سبحانه - « حكيم » فى كل تصرفاته وأفعاله وعلمه ، بأحوال خلقه ما ظهر منها وما بطن . وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد اشتملت على ألوان من الأدلة الدالة على وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته ، وبديع صنعه ، وشمول علمه ، ما يوجب الايمان به - سبحانه - وإخلاص العبادة له ، ومقابلة نعمه بالشكران لا بالكفران ، وبالطاعة لا بالمعصية ...

وبعد أن ساق - سبحانه - ألوانا من الأدلة على وحدانيته وقدرته ، عن طريق خلقه للسماء وما فيها من بروج وشهب .. وللأرض وما عليها من جبال ونبات .. وللرياح وما تحمله من سحب وأهطار ...

أتبع ذلك بأدلة أخرى على كمال ذاته وصفاته عن طريق خلقه للإنسان وللعن والعلائكة .. فقال - تعالى - :

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ (٢٦) والجآن خلقناه من قبل من نار السموم (٢٧) وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرٍ من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ (٢٨) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٢٩) فسجد الملائكة كلهم أجمعون (٣٠) إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين (٣١) قال يا إبليس مالك أن لا تكون مع الساجدين (٣٢) قال لم أكن لأسجد لبشرٍ خلقته من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ (٣٣) قال فخرج منها فإنك رجيم (٣٤) وإن عليك لعنة إلى يوم الدين (٣٥) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٣٦) قال فإنك من المنظرين (٣٧) إلى يوم الوقت المعلوم (٣٨) قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين (٣٩) إلا عبادك منهم المخلصين (٤٠) قال هذا صراطٌ علي مستقيم (٤١) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين (٤٢) وإن جهنم لموعدهم أجمعين (٤٣) لها سبعه أبواب بسلك بابٍ منهم جزء مقسوم (٤٤) »

والمراد بالإنسان في قوله .. سبحانه .. « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال ، آدم .. عليه السلام .. لأنه أصل النوع الإنساني ، وأول فرد من أفرادهِ .

والصلصال : الطين اليابس الذي يصلصل ، أي : يحدث صوتا إذا حرك أو قهر عليه . كما يحدث الزخار قال .. تعالى .. « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » ،

وقيل : الصلصال : الطين الممتن ، مأخوذ من قولهم : صلّ اللحم رأسه ، إذا أمتن ..

قال الإمام ابن جرير : والذي هو أولى بتأويل الآية ، أن يكون الصلصال في هذا الموضع . - لطين اليابس الذي لم تصبه النار ، فإذا تقرته صل فسمعت له صلصلة - وذلك أن الله - تعالى - وصفه في موضع آخر فقال : خلق الإنسان من صلصال كالفخار - فشبهه - تعالى ذكره - بأنه كالفخار في يبسه ، ولو كان معناه في ذلك الممتن لم يشبهه بالفخار ، لأن الفخار ليس بممتن فيشبهه به في الممتن غيره ، (١) .

والجاء : الطين إذا اشتد سواده وتغيرت رائحته .

والمسنون : المصنوع من سنّ الشيء . إذا صوره .

قال الآلوسي ما ملخصه : قوله ومن حمأ ، أي : من طين يغير واسود ويحاور الماء . ويقال للواحدة حمأة - يسكون الميم - ...

وقوله مسنون ، أي : مصور من سنّة الوجه وهي صورته . وأنشد لذلك ابن عباس قوله عمه حمزة يمدح النبي - صلى الله عليه وسلم - :
أغرّ كأن البدر سنّة وجهه جلا الغيم عنه ضوؤه فتبددا

وقيل مسنون : أي مصبوب . من سنّ الماء بمعنى صبّه . ويقال سنّ - بالشين أيضا - ؛ أي : مفرغ على هيئة الإنسان ... وقيل : المسنون : الممتن .. (٢)
والذي يتدبر القرآن الكريم يرى أن الله - تعالى - قد وضع في آيات متعددة أطوار خلق آدم - عليه السلام - ، فقد بين في بعض الآيات أنه خلقه من تراب ، كما في قوله - تعالى - : وإن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ... (٣)

(١) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٢٨

(٢) تفسير الآلوسي ج ٤ ص ٣١ (٣) سورة آل عمران الآية ٥٩

وبير في آيات أخرى أنه - سبحانه - خلقه من طين ، كما في قوله - تعالى -
 « الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين » (٢) .

و... هنا أنه - سبحانه - خلقه « من صلصال من حمأ مسنون » .

قَالَ الْجَل : وهذا الطور آخر أطوار آدم الطينية ، وأول ابتدائه أنه كان
 تراباً متفرق الأجزاء ، ثم بل - أي التراب - فصار طينا ، ثم ترك حتى أمتن
 واسود فصار حمأ مسنونا .

أي : تنغيرا ، ثم يبرص فصار صلصالا ، وعلى هذه الأحوال والأطوار
 تتخرج الآيات الواردة في أطواره الطينية ، كما يـ خلقه من تراب ، وآية
 « بشرا من طين » وهذه الآية التي نحن فيها .

والمقصود من هذه الآيات الكريمة ، التنبيه على عجب صنع الله - تعالى -
 وعظيم قدرته ، حيث أخرج - سبحانه - من هذه المواد بشرا سويا ،
 في أحسن تقويم .

وأكد سبحانه - الجملة الكريمة بلام القسم وقد ، لزيادة التحقيق ،
 وللإرشاد إلى أهمية هذا الخلق ، وأنه بهذه الصفة .

و ، من ، في قوله « من صلصال » لا ابتداء الغاية أو للتبعيض ، وفي قوله
 « من حمأ » ابتدائية .

والجار والمجرور صفة لصلصال أي : من صلصال كائن من حمأ ، ومسنون
 صفة لحأ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك المادة التي خلق منها الجان فقال - سبحانه - :
 « وajan خلقناه من قبل من نار السموم » .

(٢) سورة السجدة الآية ٧ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ص ٢ ص ٣٤٤ .

والمراد بالجان هنا : أبو الجس عند جمهور المفسرين . وقيل هو المليس .
وقيل هو اسم الجنس الجن .

وسمى جانا لتواريه عن الأعين ، واستشاره عن بني آدم .
أى : والجان خلقناه « من قبل » أى : من قبل خلق آدم « من فارالسمو »
أى : من الريح الحارة التى تقتل . وسميت سموما ، لأنها لشدة حرارتها وقوة
تأثيرها تنفذ فى مسام البدن .

قال ابن كثير : وقد ورد فى الحديث الصحيح : خلقت الملائكة من
نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق بنو آدم مما وصف لكم ،^(١)
ثم حكى - سبحانه - ما أمر به ملائكته عندما توجهت لإرادته
- سبحانه - لخلق آدم ، فقال - تعالى - : « وإذ قال ربك للملائكة إني
خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون » فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ،
فقعوا له ساجدين .

أى : وإذا ذكر - أيها العاقل - وقت أن قال ربك - سبحانه - للملائكة -
الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - « إني خالق » بقدرتي
« بشرا » أى : إنسانا ، وعبر عنه بذلك اعتبارا بظهور بشرته وهى ظاهر الجلد
« من صلصال من حمأ مسنون » .

« فإذا سويته » أى : سويت خلق هذا البشر ، وكملت أجزائه ، وجعلته
فى أحسن تقويم ...

« ونفخت فيه من روحي » أى : وضعت فيه مابه حياته وحركته وهو
الروح ، الذى لا يعلم حقيقته أحد سواى .

قال القرطبي : قوله : « ونفخت فيه من روحي » النفخ إجراء الريح فى
الشيء . والروح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع

ذلك الجسم وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ، فالروح خلق من خلقه
أضافه - سبحانه - إلى نفسه تشريفا وتكريما ، كقوله ، أرضى وسمائي وبيتي
وناقة الله وشهد الله ... ، (١)

وقوله ، فقروا له ساجدين ، أمر منه سبحانه للملائكة بالسجود لآدم .
أى : فإنا سويت خلقه ، وأفضت عليه ما به حياته ، فاسقطوا وخرروا له
ساجدين ، سجود تحبة وتكريم : لا سجود عبادة ، فإن سجود العبادة على وحدي .
وفل - سبحانه - ، فقروا .. ، بفناء التعقيب ، للاشعار بأن سجودهم له
واجب عليهم عقب التسوية والفتح من غير إبطاء أو تأخير .

وهذا نوع من تكريم الله - تعالى - لعبده آدم - عليه السلام - ، وله
- سبحانه - أن يكرم بعض عباده بما شاء ، وكيف شاء .. ، لا يسأل عما يفعل
وهم يسألون .

ثم بين - سبحانه - ما كان من الملائكة بعد ذلك فقال : ، فسجد الملائكة
كلهم أجمعون ، أى : امتثل الملائكة لأمر الله بعد أن خلق - سبحانه - آدم
وسواه ونفخ فيه من روحه ، فسجدوا له كلهم أجمعون دون أن يتخاف
منهم أحد .

وجمع - سبحانه - بين لفظة التوكيد ، كلهم أجمعون ، المبالغة في ذلك ،
ولإزالة أى التباس بأن أحدا شذ عن طاعة الله - تعالى - .

وقوله ، إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين ، بيان لموقف إبليس من
أمر الله - تعالى - .

وإبليس : اسم مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن ، الناشئ عن شدة اليأس ،
وفعله أبلس ، والراجح أنه اسم أعجمي ، ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة .
وهو كائن حي ، وقد أخطأ من حمله على معنى داعى الشر الذى يخطر

في النفوس . لأنه ليس من المعقول أن يكون الأمر كذلك ، مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه .

قال - تعالى - : إنه يراكم هو و قبيله من حيث لا ترونهم ... ، (١)

وقوله « أبى » من الإباء وهو الامتناع عن فعل الشيء مع القدرة على فعله ، بسبب الغرور والتكبر والتعاضد .

أى : فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، امتثالاً و طاعة لله - تعالى - ، إلا إبليس فإنه امتنع عن أن يكون مع الساجدين . تكبرا و غورا و عصيانا لأمر الله - تعالى - .

وللعلماء في كون إبليس من الملائكة أم لا قولان :

أحدهما : أنه كان منهم . لأنه - سبحانه - أمرهم بالسجود لآدم ، ولولا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود ، ولو لم يتوجه إليه الأمر بالسجود لما كان عاصيا ، ولما استحق الطرد و اللعنة ، ولأن الأصل في المستثنى أن يكون داخلا تحت اسم المستثنى منه ، حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه . وعلى هذا رأى الذى اختاره ابن عباس وابن مسعود وغيرهما يكون الاستثناء متصلا .

والثاني : أنه لم يكن من الملائكة ، لقوله - تعالى - : وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ، ففسق عن أمر ربه .. ، (٢) فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نوره ، والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية . والملائكة لا ذرية لهم ..

وعنى هذا رأى الذى اختاره الحسن وقتادة وغيرهما يكمن الاستثناء منقطعا .

قال الشيخ القاسمي : « وقد حاول الإمام ابن القيم - رحمه الله - أن يجمع بين الرأيين فقال : والصواب التفصيل في هذه المسألة ، وأن القوانين في الحقيقة قول واحد فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله . فإن أصله من نار وأصل الملائكة من نور ، فالتنا في كونه من الملائكة والمثبت كونه منهم لم يتوارد على محل واحد » (١) .

والذي نميل إليه في هذه المسألة أن إبليس لم يكن من الملائكة ، بدليل الحديث الصحيح الذي يقول فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - : « خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق بنو آدم مما وصف لكم » (٢) ، والآية الكريمة - وهي قوله - تعالى - : « إلا إبليس كان من الجن - صريحة في أنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة .

ومع هذا فإن الأمر بالسجود يشماه ، بدليل قوله - تعالى - : « قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ... » (٣)

فهذه الآية تدل دلالة صريحة على أن الله - تعالى - قد أمر إبليس بالسجود لأدم ...

ووجود إبليس مع الملائكة لا يستلزم أن يكون منهم ، ومثل ذلك كمثل أن تقول : حضر بنو فلان إلا محمد ، ومحمد ليس من بني فلان هؤلاء ، وإنما هو معهم بالمجاورة أو المصاحبة أو غير ذلك .

هذا ما اختاره ونميل إليه ، إستناداً إلى طاهر الآيات وظاهر الأحاديث ، والله - تعالى - أعلم

وقوله - سبحانه - : « قال يا إبليس مالك ألا تسكون مع السائرين

(١) تفسير القاسمي ج ٣ ص ١٠٤ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الزهد ، باب في أحاديث متفرقة ، ج ٨ ص ٢٢٧

(٣) سورة الأعراف الآية ١٢ .

قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ، بيان لما وبعث الله - تعالى - به إبليس ، وقررد إبليس - لعنة الله - على خالقه .. عز وجل ..

أى : قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل التوبيخ والزجر : أى سبب هلكك على مخالفة أمرى ، وجعلك تتمتع عن السجود لمن أمرتك بالسجود له ؟ فكان رد إبليس : ما كان ليأليق بشأنى ومنزلتى أن أسجد مع الساجدين لبشر خلقته - أيها الخالق العظيم - من صلصال من حمأ مسنون .

ومقصود إبليس بهذا الرد إثبات أنه خير من آدم ، كما حكى عنه - سبحانه - ذلك فى قوله - تعالى - : قال أما خير منه خلقته من نار وخلقته من طين ، (١) . وهذا الرد منه يدل على عصيانه لأسريره ، وعدم الرضا بحكمه ، وسوء أدبه مع خالقه - سبحانه - .

قال الآلوسى : وقد أخطأ اللعين حيث ظن أن الفضل كله بأعتبار الماده ، وما درى أنه يكون بأعتبار الفاعل ، وبأعتبار الصورة ، وبأعتبار الغاية ، بل إن ملاك الفضل والكمال هو التخلي عن المملكات الرديئة ، والتعلى بالمعارف الربانية .

فشمال والكأس فيها يمين ويمين لا كأس فيها شمال (٢)

وقوله - سبحانه - : : قال فاخرج منها فإنك رجيم - وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين ، بيان للحكم العادل الذى أصدره الله - تعالى - على إبليس ، والضمير فى قوله : منها ، يعود إلى السماء لأنها مسكن الطائعين لها . أى : أو إلى الجنة لأنها لا يسكنها إلا من أطاع الله - تعالى - ، أو إلى المنزلة التى كان فيها قبل طرده من رحمة الله ..

(١) سورة ص الآية ٧٦ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٤٣ .

أى : قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل "زجر واثقير" : فأخرج من جنتي ومن سمائي فأفانك ، رجيم ، مطرود من كل خير وكرامة ، وإن عليك اللعنة والإبعاد من رحمتي إلى يوم الدين ، وهو يوم الحساب والجزاء .

وليس المراد أن تنقطع عنه اللعنة يوم الدين ، بل المراد أن هذه اللعنة مستمرة عليه إلى يوم الدين ، فإذا ما جاء هذا اليوم أستمريت هذه اللعنة ، وأضيف إليها العذاب الدائم المستمر الباقي ، بسبب عصيانه لأمر ربه ، فذكر يوم الدين ، إنما هو للدباغة في طول مدة هذه اللعنة ودوامها مادامت الحياة الدنيا .

وعبر - سبحانه - يعلى في قوله : وإن عليك اللعنة ، للإشعار بتمكنها منه ، واستعلائها عليه ، حتى لسكان اللعنة فوقه يحملها دون أن تفارقه في لحظة من اللحظات .

ثم حكى - سبحانه - ما طلبه إبليس من ربه ، وما رد الله به عليه ، فقال - تعالى - : قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثن . قال فأفانك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم ، .

والفاء في قوله : فأنظرني ، للتفريع وهي متعلقة بمحذوف يدل عليه سياق الكلام .

والإنظار : التأخير والإمهال ومنه قوله - تعالى - : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة » ...

أى : قال إبليس لربه - عز وجل - : مادمت قد أخرجتني من جنتك ومن سمائك ، وجعلتني مرجوما ملعونا إلى يوم الدين ، فأخر موتي إلى يوم يبعث آدم وذريته للحساب وخاطب الله - تعالى - بصفة الربوبية تخضعا وتذللا لكي يجاب طلبه .

وقد أجاب الله - تعالى - له طلبه فقال : « فأفانك » يا إبليس من جملة والمنظرين ،

أى الذين أخرجت مرتهم ، إلى يوم الوقت المعلوم ، وهو يوم القيامة الذى استأثرت بعلم وقته ، والذى وصفت أحواله للناس كى يستعملوا له بالإيمان والعمل الصالح .

ويصح أن يسكنه المراد بالوقت المعلوم : وقت النفخة الأولى حين يموت كل الخلائق ويموت هو معهم .

قال ابن كثير : اجابه الله - تعالى - إلى ما سأل ، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف . ولا تمنع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

وقال بعض العلماء : وهذا الإنظار رمز إلهى على أن ناموس الشر لا ينقضى من عالم الحياة الدنيا ، وأن نظامها قائم على التصارع بين الخير والشر : وبين الأخيار والأشرار .

قال - تعالى - : « بل نقذف بالحق نقي الباطل فيدمنه فإذا هو زاهق » .
ولذلك لم يستغن نظام العالم عن إقامة قوانين العدا ، والصلاح ، ولإيداعها إلى الحكمة لتنفيذها والذوق عنها ، (١) .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملت إبليس على طلب تأخير موته إلى يوم القيامة ، والتى من أهمها الانتقام من آدم وذريته فقال - تعالى - : « قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين » .

والباء فى قوله « بما أغويتنى لأزينن لهم ... » للسببية أو للقسم .

قال الإمام الرازى ماملخصه : الباء ههنا بمعنى السبب ، أى : بسبب كونى غاويا لأزينن لهم ، لقول القائل : أقسم فلان بمعصيته ليدخلن النار ، وبطاعته ليدخلن الجنة .

أو للقسم ومأمودية . وجواب القسم لأزينن لهم . والمعنى أقسم ياغوائك
لي لأزينن لهم . ونظيره قوله - تعالى - د قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، (١) .

وقوله د أغويتى ، من الإغواء ، وهو خلق الغى فى القلوب ، وأصل الغى
الفساد ، ومنه غوى الفصيل - كبرض - إذا بشم من اللبن ففسدت مدقه . أو منع
من الرضاع فهزل وكاد يهلك ، ثم استعمل فى الضلال . يقال : غوى فلان بغوى
غيا وغواية فهو غاو إذا ضل عن الطريق المستقيم . وأغواه غيره وغواه : أضله .

وقوله د لأزينن لهم ، من التزيين بمعنى التحسين والتجميل ، وهو تصيير
الشئ زينا أى : حسنا حتى ترغب النفوس فيه وتقبل عليه .

والضمير فى د لهم ، يعود على ذرية آدم ، وهو مفهوم من السياق ولم يجر
لهم ذكر ، وقد جاء ذلك صريحا فى قوله - تعالى - فى آية أخرى : د قال أرايتك
هذا الذى كرمت على ابن أختك إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته لإلا قابلا ، (٢) .

وحذف مفعول د لأزينن ، لدلالة الما مقام عليه .

أى : لأزينن لهم المعاصى والسيئات ، بأن أحسن لهم القبيح . وأزين لهم
المتكر . وأحب الشئ . ات إلى نفوسهم حتى يتبعوها ، وأبذل نهاية جهدى فى
صرفهم عن طاعتك . . . وقال - سبحانه - د فى الأرض ، لتحديد مكان إغوائهم ،
لأذى المكان الذى صار مستقرا له ولآدم وذريته ، كما قال - تعالى - فى آية
أخرى : د فأزلهما الشيطان عنها - أى الجنة - فأخرجهما - أى آدم وحواء - مما
كانا فيه ، وقلنا أهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع
إلى حين ، (٣) .

وقوله د ولأغوينهم أجمعين ، مؤكد لما قبله .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ٦٨٥

(٢) سورة الإسراء الآية ٦٢ (٣) سورة البقرة الآية ٢٦ .

أى : والله لأغوينهم جميعا مادمت قادرا على ذلك ، ولا علمان على إضلالهم بدون فتور أو يأس ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : « ثم لا تبهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » (١) .

قال القرطبي : وروى ابن طبيعة عبد الله عن دراج أبى السمع ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن إبليس قال يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم ، فقال الرب : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » .

وقوله - سبحانه - « ولا عبادك منهم المخلصين » ، إقرار من إبليس بأن من عباد الله - تعالى - قوما لا يستطيع أن يغريهم ، ولا يقدر على إضلالهم .

وكلمة « المخلصين » ، قرأها نافع وحفص وعاصم والكمسائى - بفتح اللام - ، فيكون المعنى : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك الذين استخلصتهم لطاعتك ، وصنتهم عن إقرار ما نهيتهم عنه .

وقرأها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو - بكسر اللام - ، فيكون المعنى : لأضلهم جميعا ، إلا عبادك الذين أخلصوا لك العمل ، وابتعدوا عن الربا فى أقوالهم وأفعالهم .

وهذا الاستثناء الذى اعترف به إبليس بعد أن أدرك أنه لا محيص له عنه - هو سنة الله - تعالى - فى خلقه ، فقد جرت سنته التى لا تغيير ولا تبدل لها ، بأن يستخلص لذاته من يخلص له قلبه ، وأن يعزى من يعزى حدوده ، ويحفظ من يحفظ تركائيفه ، ولذا كان جوابه - سبحانه - على إبليس ، هو قوله - تعالى - : « قال هذا صراط على مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » .

واسم الإشارة « هذا » يعود إلى الاستثناء السابق وهو قوله « إلا عباده من المخلصين » .

وقد اختار هذا الرأي الإمام الآلوسی فقال : « قال ، الله - تعالى - : « هذا صراط علي ، أي : حق لا بد أن أواعيه » مستقيم ، لا انحراف فيه فلا مدل عنه إلى غيره .

والإشارة إلى ما تضمنه الاستثناء وهو تخلص المخلصين من إغوائه وكلة على تستعمل في الوجوب . والمعزلة يقولون به حقيقة لقولهم بوجوب الأصلح عليه - تعالى - .
وقال أدل السنة ، إن ذلك وإن كان تفصيلاً منه - سبحانه - إلا أنه شبه بالحق الواجب لتأكيد ثبوته وتحقق وقوعه ، بمقتضى وعده - عز وجل - ، بغيره - بغيره - ، بل لذلك .

ثم قال : وقرأ الضحاك ومجاهد ويعقوب . « هذا صراط علي » - بكسر اللام وضم الياء وتنوينها - أي : عال لا ارتفاع شأنه ،^(١) .
وقد اختار صاحب الكشاف عودة اسم الإشارة إلى ما بعده فقال : قال الله - تعالى - : « هذا صراط علي مستقيم » ، أي هذا طريق حق علي أن أواعيه ، وهو أن يكون لك سلطان على عبادي ، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته ،^(٢) ، ويرى ابن جرير أن علي هنا بمعنى إلى ، فقد قال - رحمه الله - قوله - تعالى - : « هذا صراط علي مستقيم » ، بمعنى هذا طريق إلى مستقيم .

فكان معنى الكلام : هذا طريق رجعه إلى ، فأجازي كلاباً عملهم ، كما قال - تعالى - : « إن ربك لبالمرصاد » ، وذلك نظير قول القائل لمن يتوعدده ويتهدهده : طريقك علي وأنا علي طريقك ، فكذلك قوله « هذا صراط ، معناه : هذا طريق علي وهذا طريق إلى ... » ،^(٣)

(١) تفسير الآلوسی ج ١٤ ص ٦٩

(٢) تفسير الكشاف ج ٣٩١ (٣) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٣٣

ويبدو لنا أن الآية السكريمة مسوقة لبيان المنهاج القويم الذي كتبه الله - تعالى - على نفسه فضلاً عنه وكرماً ، والميزان العادل الذي وضعه - سبحانه - لتبيين الخبيث من الطيب .

فكانه - سبحانه - يقول في الرد على إبليس الذي اعترف بعجزه عن إغواء المخلصين من عباد الله : يا إبليس ، إن عدم قدرتك على إغواء عبادي المخلصين منهج قويم من مناهجي التي اقضتها حكمتي وعدائي ورحمتي ، وسنة من سنني التي آليت على نفسي أن ألزم بها مع خلقي . إن عبادي المخلصين لا قوة ولا قدرة لك على إغوائهم ، لأنهم حتى إذا مسهم طائف منك . أسرعوا بالتوبة الصادقة إلى ، وقبلتها منهم ، وغفرت لهم : لهم ولا يمكنك نستطيع إغواء أتباعك الذين استحوذت عليهم ؛ فانهادوا لك

وفي هاتين الآيتين ما فيهما من تنويه بشأن عباد الله المخلصين ، ومن المدح لهم بقوة الإيمان ، وعلو المنزلة ، وصدق العزيمة ؛ وضبط النفس

قال - تعالى - : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى ربك وكيلاً » (١) .

قال الآلوسي في قوله : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . . . » أي تصرف وسلط ، والمراد بالعباد ، المشار إليهم بالمخلصين ، فالإضافة للعمد والاستثناء إلى هذا في قوله ، « إلا من أتبعك من الغاوين » ، منقطع .

واختار هذا غير واحد وجوز أن يكون بالعباد العموم والاستثناء متصل ، والكلام كالتقرير لقوله « إلا عبادك عنهم المخلصين » ، ولذا لم يعطف على ما قبله ، وتغيير الوضع لتعظيم المخلصين ، يجعلهم هم الباقيين بعد الاستثناء . . . (٢)

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المتبعين لإبليس فقال : « وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » .

والضمير في قوله «لوعدهم» يعود إلى الغاوين ، أو إلى «من أنبهلك»
والموعد : مكان الوعد .

والمراد به هنا المسكان الذي سينتهون إليه حتما بعد أن كانوا غافلين عنها
في الدنيا ، وهو جهنم أى وإن جهنم لمكان محبوس هؤلاء الذين أغواهم إبليس
دون أن يفلت أحد من سعيها .

وجملة «لها سبعة أبواب» مستأنفة لوصف حال جهنم وأبوابها .

وجملة «لكل باب منهم جزء مقسوم» صفة لأبواب ، وضمير «منهم»
يعود إلى الغارين أتباع إبليس .

والمقسوم : من القسمة وهو لإفراق النصيب عن غيره . تقول : قسمت
كذا قسما وقسمة إذا ميزت كل قسم عن سواه .

والمعنى : إن لجهنم سبعة أبواب ، لكل باب منها ، فريق معين من الغاوين
يدخلون منه ، على حسب تفاوتهم في الغواية وفي متابعة إبليس ويرى كثير
من المفسرين أن المراد بالأبواب هنا الأطباق والدركات .

أى لجهنم سبعة أطباق أو دركات بعضها فوق بعض ، ينزلها الغاوون ،
بحسب أصنافهم وتفاوت مراتبهم في الغي والضلال .

قال الامام ابن كثير : قوله - تعالى - «لكل باب منهم جزء مقسوم»
أى : قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس ، يدخلونه لا يحيد لهم
عنه - أجازنا الله منها - وكل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في درك
بقدر فعله ثم قال : وعن سمرة بن جندب - رضى الله عنه - عن النبي
صلى الله عليه وسلم في قوله «لكل باب منهم جزء مقسوم» قال إن من أهل النار
من تأخذه النار إلى كعبه ، وإن منهم من تأخذه النار إلى حبهزته^(١) ، ومنهم
من تأخذه النار إلى تراقيه^(٢) .

(١) الحجة - بضم الحاء وسكون الجيم - معقد الأزار

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٥٥

وبعد : فهذه قصة خلق الإنسان ، وقصة خلق الجن . كما بينها هذه السورة
الكريمة - ومن الدروس والعظات التي نأخذها منها :

١ - دلالتها على كمال قدرة الله - تعالى - ، وبديع خلقه ، وبلغ حكمته .
حيث خلق - سبحانه - الإنسان من مادة تختلف عن المادة التي خلق منها
الجن ، وحيث كرم الإنسان بخاصية أخرى أشار إليها القرآن في قوله
- تعالى - : « إذا سويته ونفخت فيه من روحي . . »

وهذه الخاصية هي التي تجعل من هذا الإنسان ، إنسانا ينفرد بخصائصه
عن كل الأحياء الأخرى التي تشاركه في هذه الحياة .

٢ - أن خلق الجن سابق على خلق الإنسان ، يدل على قوله - تعالى - :
« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجن خلقناه من قبل
من نار السموم » .

٣ - أن الملائكة عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون
ما يُؤمرون ، فهم بمجرد أن أمرهم الله - تعالى - بالسجود لآدم ، سجدوا جميعا
دون أن يشذ منهم أحد .

٤ - أن الإصرار على معصية الله - تعالى - ، يؤدي إلى الطرد من رحمته
- سبحانه - ، ومن الخروج من رضوانه ومغفرته .

٥ - أن التكبر والفروغ والحد ، من أبرز الصفات الذميمة التي حملت
للبليس على الامتناع عن السجود لآدم ، وعلى مخالفة أمر ربه - عز وجل - .

٦ - أن إجابته - سبحانه - لطلب إبليس في تأخير موته ، لم يكن
لكرامة له عنده - عز وجل - ، وإنما كان استدراجا له لإيهامه ، وابتلاء لبني
آدم ليميز قوى الإيمان من ضعيفه .

٧ - أن العداوة بين إبليس وقبيله ، وبين آدم وذريته ، باقية إلى أن يرث

الله الأرض ومن عليها ، وأن إبليس وجنوده لم يُنْزِلُوا مِنْ أَبْوَابِ
الشر إِلَّا وَزْبُورَهُ وَجَمَلُوهُ ابْنِي آدَمَ ، وَحَرَضُوهُمْ عَلَى الدُّخُولِ فِيهِ ، لِيَكْتَسِبُوا
السَّيِّئَاتِ الَّتِي نَهَاكَمُ اللَّهُ - تعالى - عنها .

قال - تعالى - : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ
لِيَكْفُرُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ .

٨ - أن عدالة الله - تعالى - ورحمته قد اقتضت أن يحصى عباده المخلصين
من تسلط الشيطان عليهم ، لأنهم منه في حمى ، ولأن مداخله إلى نفوسهم
مغلقة ، إذ أنهم خافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى ...

أما الذين يستطيع الشيطان التسلط عليهم ، والتأثير فيهم ، فهم أولئك
الذين انقادوا لوساوسه ، واستجابوا لفرغاته ، وصاروا دليمة له يسخرها
كما يشاء ...

وهؤلاء الذين تنتظرهم جهنم بأبوابها السبعة ...

قال - تعالى - : : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ
الْغَاوِينَ ، وَإِنْ جُهِدَ لِمُوعَدِهِمُ آجَلُ عَيْنٍ . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء
مقسوم .

هذه هي عاقبة الغاوين أتباع إبليس ، أما عاقبة المخلصين الذين أخلصوا
بوسمهم لله - تعالى - ، وأطاعوه في السر والعلن ، فقد بينها - سبحانه - بعد
ذلك في قوله :

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ (٥٦)
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٧) لَا يَمَسُّهُمْ
فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٥٨) .

وقوله - سبحانه - : : إِنَّ الْمُتَّقِينَ . . . ، كلام مستأنف لإظهار حسن عاقبة
المتقين ، بعد بيان سوء عاقبة الغاوين .

والمتهقون : جمع متهق اسم فاعل من اتقى . وأصله أوتقى - بره افتعل - من وقى الشيء وقاية ، أى : صانه وحفظه بما يضره ويؤذيه .

والجنات : جمع جنة ، وهى كل بستان ذى شجر متكاثف ، ملئ بالأغصان ، يظلل ما تحته ويسره . من الجن وهو شد الشيء عن الحاسة .. والمراد بها هنا الدار التى أعدها الله - تعالى - لتكريم عباده المؤمنين فى الآخرة .

والعيون جمع عين . والمقصود بها هنا المياه المنشرة فى الجنات .

والمعنى : « إن المتهقين ، الذين صافوا أنفسهم عن الشرك . وقالوا ربنا الله ثم استقاموا ، جنات ، غاية ، فيها ما نشتهيه الأنفس ، وفيها ما لم يجمع الناس . قلذها الأعين .

وجملة « ادخلوها بسلام آمنين » معمولة لقول محذوف . والباء فى قوله « بسلام » المصاحبة .

أى : وتقول لهم الملائكة - على سبيل التكريم - والتحية - عند دخولهم الجنات واستقرارهم فيها : ادخلوها - أيها المتهقون - تصاحبكم السلامة من الآفات ، والنجاة من المخافات .

ثم بين - سبحانه - ما هم عليه فى الجنة من صفاء نفسى ، ونقاء قلبى . فقال : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » .

الزراع : القلع يقال : نزع فلان هذا الشيء من مكانه إذا نزعته منه ، وفعله من باب ضرب والغل : الحقد والضغينة ، وأصله من الغلالة ، وهى ما يلبس بين العرب بين : الشعار والذئار .

أو من الغلل وهو الماء المتخلل بين الأشجار . ويقال : غلى صدر فلان بغل - بالكسر - غلا إذا كان ذا غش ، أو ضغن ، أى حقد .

والسرور : جمع سرور وهو المسكان المهيأ لراحة الجالس عليه وإدخال السرور على قلبه .

أى : وقلعنا مافى صدور هؤلاء المتقين من ضغائن وعداوات كانت موجودة فيها فى الدنيا ، وجعلناهم يدخلون الجنة إخوانا متحابين متصافين ، ويجلسون متقابلين ، على سرر مهيأة لراحتهم ورفاهيتهم وإدخال السرور على نفوسهم .
وقوله : « إخوانا على سرر متقابلين ، حال بن فاعل ، أدخلوها ، » .
وعبر بقوله ، متقابلين ، لأن مقابلة الوجه للوجه أدخل فى الإيناس ، - أجمع للقلوب .

والآية الكريمة تشعّر بأنهم فى الجنة ينشئهم الله - تعالى - - نشأة أخرى جديدة ، تكون قلوبهم فيها خالية من كل ما كان يخالطها فى الدنيا من ضغائن وعداوات . وأحقاد وأطماع وغير ذلك من الصفات الذميمة ، ويصلون بسبب هذه النشأة الجديدة إلى منتهى الرقى البشرى ...

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية عددا من الأحاديث والآثار منها ما رواه القاسم عن أبى أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنة على مافى صدورهم الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافروا وتقابلوا نزع الله مافى صدورهم فى الدنيا من غل ، ثم قرأ : « ونزعنا مافى صدورهم من غل ... » ،

ومنها : ما رواه أبو مالك الأشجعى عن أبى حنيفة - مولى لطلحة - قال : دخل عمران بن طلحة على الإمام على بن أبى طالب بعد ما فرغ من أصحاب الجنى ، فرحب على - رضى الله عنه - به ، وقال : لى لأرجو أن يجعلنى الله وأباك من الذين قال الله فيهم : « ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ... » ،^(١)

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٦ وابن جرير ج ١٤ ص ٣٦ .

ثم ختم - سبحانه - ببيان جزائهم بقوله : « لا يمسمهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » .

والنصب : التعبد والإعلاء . يقال : نصب الرجل نصبا - من باب طرب - إذا نزل به التعبد والهم . ويقال فلان في عيش ناصب ، أى فيه كد وجهد . قال ابن كثير قوله - تعالى - : « لا يمسمهم فيها نصب » ، يعنى مشقة وأذى كما جاء في الصحيحين ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إن الله أمرنى أن أبشر خديجة ببیت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » .

وقوله « وما هم منها بمخرجين » - بل هم باقون في الجنات بقاء سرمديا دائما لا ينقطع - كما جاء في الحديث : يقال - لأهل الجنة - يا أهل الجنة : إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبدا ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبدا (١) .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد أشتملت على بشارات للدومنين الصادقين ، هذه البشارات مقرونة بالتعظيم ، خالية من الشوائب والأضرار ، باقية لا انقطاع لها .

أما البشارات فتراها في قوله - تعالى - « إن المتقين في جنات وعيون » . وأما اقتراؤها بالتعظيم والتكريم ، فتراها في قوله - تعالى - : « ادخلوها بسلام آمنين » .

وأما خلوها من الشوائب والأضرار ، فتراها في قوله - تعالى - : « ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا ... » .

وأما بقاؤها واستمرارها ، فتراها في قوله - تعالى - : « وما هم منها بمخرجين » .

هذا ، وشييه بهذه الآيات قوله - تعالى - : « إن المتقين في جنات وعيون .
أخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » (١) .

وقوله - تعالى - : « ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار
وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . » (٢) ،
وتوله - تعالى - : « وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور
شكور . الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها
اغوب » (٣) .

وقوله - تعالى - : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات
الفرود » (٤) .

ثم بين - سبحانه - نأذج لمن شملتهم رحمته لإيمانهم وعملهم الصالح ، ولمن
شملتهم نقمته لكفرهم وعملهم الطالح ، ومن ههنا نأذج تبشيريه لإبراهيم
- وهو شيخ كبير - بسلام عليم ، وإنجاؤه للوط ومن آمن معه من العذاب
المهين ، وإهلا كه المجرمين من قومه .. قال - تعالى - :

« نبي : عبادي أني أنا الغفور الرحيم » (٤٩) وأن عذابي هو العذاب
الأيلم (٥٠) ونبئهم عن صيف إبراهيم (٥١) إذ دخلوا عليه فقالوا
سلاماً ، قال إنا منك وجلون (٥٢) قالوا لا توجل : إنا نبشرك بغلام
عليم (٥٣) قال أبشروني على أن مسني السكب فبم تبشرون (٥٤)
قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين (٥٥) قال ومن يقط من

(١) سورة الذاريات الآيتان ١٥ ، ١٦ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٤٣ .

(٣) سورة فاطر الآيتان ٣٤ ، ٣٥ .

(٤) سورة الكهف الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨ .

رحمة ربّه إلا الضّالّون (٥٦) قال في خطبه كمْ أيّها المرسلون (٥٧) قالوا
إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٥٨) إلا آل لوط إنا لمنجّوهم أجمعين (٥٩)
إلا امرأتَهُ قدّرتنا إنّها لمنّ الغابرين (٦٠) .

والخطاب في قوله - تعالى - . وفي عبادي . . . للرسول - صلى الله عليه
وسلم . . . والنبأ : الخبر العظيم .

والمراد بعبادي : المؤمنون منهم ، والإضافة للتشريف .

أي : أخير - أيها الرسول الكريم - عبادي المؤمنين أني أما الله - تعالى -
السكرير المغفرة لذنوبهم ، الواسع الرحمة لمسيئهم ، وأخيرهم - أيضا - أن عذابي
هو العذاب الشديد الإيلام ، فعليهم أن يقدموا القول الطيب ، والعمل الصالح ،
لئلا يظفروا بمغفرتي ورحمتي ، وينجوا من عذابي ونقمتي .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد جمع في هاتين الآيتين بين المغفرة والعذاب ،
وبين الرحمة والانتقام ، وبين الوعد والوعيد ، لبان سنته - سبحانه - في خلقه ،
ولسكى يعيش المؤمن حياته بين الخوف والرجاء ، فلا يقنط من رحمة الله ،
ولا يقصر في أدا ما كلفه - سبحانه - به .

وقدم - سبحانه - فبا الغفران والرحمة ، على نبا العذاب والانتقام ،
جريا على الأصل الذي ارتضته مشيئته ، وهو أن رحمته سبقت غضبه ،
ومغفرته سبقت انتقامه .

والضمير أنا وهو ، في الآيتين السكريتين ، للفصل ؛ لإفادة تأكيد الخبر .
قال الإمام الرازي ما ملخصه : وفي الآيتين لطائف :

أحداها : أنه أضاف - سبحانه - العباد إلى نفسه بقوله : عبادي ، وهذا
تشريف عظيم لهم . . .

وثانيها . أنه لمّا ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بالفاظ ثلاثة :

أولها : قوله : إني ، وثانيها قوله : أنا ، ، وثالثها . لإدخال حرف الألف واللام على قوله : الغفور الرحيم ، ، ولما ذكر العذاب لم يقل : إني أنا المعذب ، بل قال : وأن عذابي هو العذاب الأليم ، .

وثالثها : أنه أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يبلغ إليهم هذا المعنى ، فكمأنه أشهد على نفسه في التزام المغفرة والرحمة .

ورابعها : أنه لما قال : نبي عبادي ، كان معناه نبي كل من كان معترفا بعبوديتي ، وإذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع . فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله - تعالى - ، (١) .

وقال الآلوسی : وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إن الله - تعالى - خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأملك عنده تسعة وتسعين رحمة ، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر كل الذي عنده من رحمة لم يئأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله - تعالى - من العذاب ، لم يأمّن من النار ، .

وأخرج عبد بن حميد وجماعة عن قتادة أنه قال في الآية : بلأنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لو يعلم العبد قدر عفو الله - تعالى - لما تورع من حرام ، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : ونبئهم عن ضيف إبراهيم ... ، معطوف على قوله قبل ذلك : نبئهم عبادي ... ،

قال الجبل : وأصل الضيف : المبيت ، يقال أضفت إلى كذا . إذا ملت إليه والضيف : من مال إليك نزولا بك ، وصارت الضيافة متعارفة في القرى . وأصل

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٩ ص ٩٥ :

(٢) تفسير الآلوسی ج ١٢ ص ٥٥ .

الضعيف ، صدر ، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع في غالب كلامهم . وقد يجمع
فبِقَالَ أَضْيَافُ وَضِيُوفٌ ... ،^(١)

والمراد بضعيف إبراهيم هنا : الملائكة الذين نزلوا عند ضيوفه في صورته
بشرية ، وبشروهم بغلام عليهم ، ثم أخبروه بأنهم أرسلوا إلى قوم لوط
لإهلاكهم ...

ثم فصل - سبحانه - ما دار بين إبراهيم وضيوفه فقال : « إذ دخلوا عليه
فقالوا سلاما ... ،

والظرف « إذ » منصوب على أنه مفعول به لفعل مقدر .
أى : ونبتهم - أيضا - أيها الرسول الكريم - عن ضيف إبراهيم : وقت
أن دخلوا عليه ، فقالوا له على سبيل الدعاء أو التحية « سلاما ، أى : سلمت
سلاما . أو سلمنا سلاما .

فلفظه « سلاما ، منصوب بفعل محذوف .
وقوله - سبحانه - « قال إنا منكم وكنون ، بيان لما رد به إبراهيم عليه
السلام - على الملائكة .

و « وجلون ، جمع وجل ، والوجل : اضطراب يعتري النفس لتوقع
حدوث مكروه .

يقال : وجل الرجل وجلا فهو وجل إذا خاف .
أى : قال لهم إبراهيم بعد أن دخلوا عليه وبأدوية التحية إنا منكم خائفون .
وقال إنا منكم ... ، بصيغة الجمع ، لأنه قصد أن الخوف منهم قد
اعتراه هو ، واعتري أهله معه .

وكان من أسباب خوفه منهم ، أنهم دخلوا عليه بدون إذن ، وفي غير وقت الزيارة
وبدون معرفة سابقة لهم ، وأنهم لم يأكلوا من الطعام الذي قدمه إليهم ...
هذا ، وقد ذكر - سبحانه - في سورة الذاريات أنه « عليهم السلام

(١) حاشية الجلالين ج ٢ ص ٥٤٨ .

فقال - تعالى - : هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين - إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون ، (١) .

كما بين - سبحانه - في سورة هود أن من أسباب خوفه منهم ، عدم أكلهم من طعامه : قال - تعالى - : : فلما رأى أيديهم لا تصل إليه - أى إلى طعامه - فكرهم وأوجس منهم خيفة ... ، (١) .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته الملائكة لإدخال الطعامينة على قلب إبراهيم فقال - تعالى - : : قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ، .

أى : قالت الملائكة لإبراهيم على سبيل البشارة وإدخال السرور على قلبه : لا تخف منا يا إبراهيم ، إنا جئنا إليك لنبشرك بغلام ذى علم كثير بشريعة الله - تعالى - وبأوامره ونواهيه ، وهو إسحق - عليه السلام - .
وجملة : إنا نبشرك ... ، مستأنفة لتعليل النهى عن الوجل .

وقد حكى - سبحانه - هنا أن البشارة كانت له ، وفي سورة هود أن البشارة كانت لامرأته ، ومعنى ذلك أنها كانت لهما معا ، إما في وقت واحد ، وإما في وقتين متقاربين بأن بشره هو أولا ، ثم جاءت امرأته بعد ذلك فبشروها أيضا ، ويشهد لذلك قوله - تعالى - : : وامرأته قائمة فضحككن فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إبراهيم للملائكة بعد أن بشره بهذا الغلام العليم ، فقال - تعالى - : : قال أبشروني على أن مسنى الكبر فبم تبشرون ، (٢) .
والاستفهام للتعجب . كأنه تعجب من أن يرزقه الله - تعالى - بغلام عليم بعد أن مسه الكبر ، وبلغ سن الشيخوخة .

ومعنى : بمعنى مع ، والمس : اتصال شىء بآخر على وجه الاحساس والاصابة .
أى : قال لإبراهيم للملائكة ، بعد أن بشره بالولد ، أبشروني بذلك مع أن الكبر قد أصابنى ، والشيخوخة قد اعترفتى فبأى شىء عجيب قد بشرتموني

(١) الآيات ٢٤ ، ٢٥ (٢) الآية ٧٠ (٣) سورة هود الآية ٧١

وتعجب إبراهيم إنما هو من كمال قدرة الله - تعالى - ونفاذ أمره ، حيث وهبه هذا الغلام في تلك السن المتقدمة بالنسبة له ولامرأته ، والتي جرت العادة أن لا يكون معها لإنجاب الأولاد .

وقد حكى القرآن هذا التعجب على لسان امرأة إبراهيم في قوله - تعالى - قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ، إن هذا لشيء عجيب .. (٢) . قال الامام الرازى ما ملخصه : والسبب في هذا الاستفهام أن العادة جارية بأنه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة ...

وهناك جواب آخر ، وهو أن الانسان إذا كان عظيم الرغبة في شيء ، وفاته الوقت الذى يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه ، فإذا بشر بعد ذلك بحصوله ازداد فرحه وسروره ، ويصير ذلك الفرح القوى كالمدهش له وربما يجعله هذا الفرح يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى ، طلبا للتأكد بسماها ... (٣) .

وقرله - سبحانه - قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ، .
أى : قال الملائكة لابراهيم لزيادة اطمئنانه ، ولتأكيد بشارته بالغلام العليم :

يا ابراهيم إنا بشرناك بالامر المحقق الوقوع ، وباليقين الذى لا خلف معه ، وهو أن الله - تعالى - سيهبك الولد مع تقدم سنك وسن زوجك ، فلا تكن من الایسین من رحمة الله - تعالى - ، فان قدرته - عز وجل - لا يعجزها شيء .

وهنا دفع لإبراهيم - عليه السلام - عن نفسه وذيلة اليأس من رحمة الله . فقال على سبيل الإنكار والتفكير ومن يقنط من رحمة وبه إلا الضالون ، أى : أنا لئس بنى قنوط أو يأس من رحمة الله ، لأنه لا ييأس من رحمة الله - تعالى - إلا القوم الضالون عن طريق الحق والصواب ، الذين لا يعرفون سعة رحمته

- تعالى - ، ونفاد قدرته ، ولكن هذه البشارة العظيمة - مع تقدم سن وسن زوجي - هي التي جعلتني - من شدة الفرح والسرو - ، أعجب من كمال قدرة الله - تعالى - ، ومن جزيل عطائه ، ومن سابغ مننه - ، حيث رزقني الولد في هذه السن التي جرت العادة بأن لا يكون معها لإنجاب أولاده .

تم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله إبراهيم للملائكة ، بعد أن اطمأن إليهم ، فقال : « قال فما خطبكم أيها المرسلون » .
والخطب : مصدر خطب يخطب ، ومنه قولهم : هذا خطب يسير ، وخطب جمل ، وجمعه خطوب ، وخصه بعضهم بما له خطر من الأمور . وأصله الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب ويخطب له .

أى : قال إبراهيم - عليه السلام - للملائكة على سبيل الاستيضاح بالتفصيل عن سبب مجيئهم : فما شأنكم الخطير الذي من أجله جئتم إلينا سوى هذه البشارة .

وكأنه قد فهم أن مجيئهم إليه ليس لمجرد البشارة ، بل من وراء البشارة أمر آخر جاؤا من أجله .

وهنا بادرة الملائكة بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - وقالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ،

أى : قالوا له إنا أرسلنا - بأمر الله - تعالى - إلى قوم شأنهم الاجرام ، ودأبهم الفجور ، والمراد بهم قوم لوط - عليه السلام - وكانوا يسكنون مدينة سدوم ، بمنطقة وادي الأردن وقوله ، إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين ، استثناء من القوم المجرمين ، الذين أرسل الملائكة لاهلاكهم .

والمراد بآل لوط : أتباعه الذين آمنوا به وصدقوه ، ولم يشاركوا قومهم في كفرهم وشذوذهم .

أى : إنا أرسلنا إلى قوم لوط لاهلاكهم ، إلا من آمن منهم فإننا لمنجوهم أجمعين .

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشف فقال : فإن قلت . قوله - تعالى -
 « إلا آل لوط » استثناء متصل أم منقطع ؟

قلت : لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم فيكون منقطعاً ، لأن القوم
 موصوفون بالأجرام فاختلف لذلك الجنسان ، وأن يكون استثناء من الضمير
 في « مجرمين » فيكون متصلاً ، كأنه قيل : قد أرسلنا إلى قوم قد أجرموا
 كلهم إلا آل لوط وحدهم ، كما قال : « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين »
 فإن قلت : فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين ؟ قلت : نعم ، وذلك
 أن آل لوط يخرجون في المنقطع من حكم الإرسال ، وعلى أنهم أرسلوا إلى
 القوم المجرمين خاصة ، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً ... كأنه قيل : إنا
 أهلكتنا قوماً مجرمين . ولكن آل لوط أنجيناهم .

وأما في المتصل ، فهم داخلون في حكم الإرسال ، وعلى أن الملائكة أرسلوا
 إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء ، وينجوا هؤلاء ، فلا يكون الإرسال مخلصاً
 بمعنى الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأول ، (١) ...

وقوله - سبحانه - « إلا امرأته قدرنا إنها لمن العابرين » استثناء من
 الضمير في (المنجوه) ، إخراجاً لها من التنجية .

أي : إلا امرأة لوط .. عليه السلام - فليست ممن سفنجه ، بل هي
 ممن سهلته مع القوم المجرمين .

ومعنى (قدرنا) : قضينا وحكنا .

والعابر : الباقي . يقال غير الشيء غبوراً إذا بقي وأصله من الغبرة وهي
 بقية اللبن في الضرع . وقد يستعمل في الماضي فيكون هذا اللفظ من الأضداد .

ونسب الملائكة التدبير إليهم فقالوا (إلا امرأته قدرنا ...) مع أنه
 فعل الله - تعالى - ، لما لهم من الزاني عنده - سبحانه - ، ولأنهم ما أرسلوا
 لإهلاك المجرمين وإنجاء المؤمنين ، إلا بأمره .

قال الآلوسى ماملخصه : والظاهر أن قوله - تعالى - ر إلا امرأته قدرنا ...) من كلام الملائكة ، وأسندوا التقدير إلى أنفسهم - وهو فعل الله - سبحانه - ، لما لهم من القرب والاختصاص ، وهذا كما يقول أحد حاشية السلطان : أمرنا بذلك .. والامر في الحقيقة هو السلطان . وقيل - ولا يخفى بعده - هو من كلام الله - تعالى - فلا يحتاج إلى تأويل ، وكذا لا يحتاج إلى تأويل إذا أريد بالتقدير العلم .

قال بعض العلماء : وفي هذه الآية الكريمة دلائل واضحة لما حققه علماء الأصول من جواز الاستثناء من الاستثناء ، لأنه - تعالى - استثنى آل لوط من إهلاك المجرمين بقوله (إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين) ثم استثنى من هذا الاستثناء امرأة لوط بقوله (إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين) (١) . وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد حكمت لنا بأسلوب بليغ حكيم ، مآدار بين إبراهيم وبين الملائكة الذين جاءوا لتبشيره بغلام عايم ، وإخباره بإهلاك القوم المجرمين ، وهم قوم لوط - عليه السلام - ..

ثم حكمت السورة بعد ذلك مآدار بينهم وبين لوط - عليه السلام - بعد أن جاءوا إليه ، ومآدار بين لوط - عليه السلام - وبين قومه المجرمين من مجادلات ومحاورات ، ومآحل هؤلاء المجرمين من عذاب جعل أعلى مديةتهم أسفلها ... فقال - تعالى - :

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢)
قَالُوا جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤)
فَأَنْسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أذْيَارَهُمْ ، وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ،
وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ
مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ

(١) تفسير (أضواء البيان) ج ٤ ص ١٥٥ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

هؤلاء ضيفي فلا تفضحون (٦٨) واتقوا الله ولا تحزون (٦٩) قالوا
أو لم ننهك عن العالمين (٧٠) قال هؤلاء بنائي إن كنتم فاعلين (٧١)
لعمرك إني سأكريهم يممون (٧٢) فأخذهم الصيحة
مشرقين (٧٣) فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من
سجيل (٧٤).

قال الألوسي : وقوله - تعالى - : (فلما جاء آل لوط المرسلون) شروع
في بيان إهلاك المجرمين ، وتنجية آل لوط . ووضع الظاهر موضع الضمير ،
للإيدان بأن مجيئهم لتحقيق ما أرسلوا به من ذلك (١) ...

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يفهم من السياق والتقدير :
وخرج الملائكة من عند إبراهيم - بعد أن بشره بعلامه وبعد أن أخبروه
بوجهتهم - فأنهبوا إلى المدينة التي يسكنها لوط - عليه السلام - وقومه ، فلما
دخلوا عليه قال لهم : (إنكم قوم منكرون) .

أي : إنكم قوم غير معروفين لي ، لأنني لم يسبق لي أن رأيتمكم ، ولا أدري
من أي الأقسام أنتم ، ولا أعرف الغرض الذي من أجله أتيتكم ، وإن نفسي
ليساورها الخوف والقلق من وجودكم عندي ...

ويبدو أن لوطا - عليه السلام - قد قال لهم هذا الكلام بضيق نفس ، لأنه
يعرف شذوذ المجرمين من قومه ، ويخشى أن يهلكوا بوجود هؤلاء الضيوف
أصحاب الوجوه الجيلة عنده ، فيبدوا عليهم دون أن يملك الدفاع عنهم ...

وقد صرح القرآن الكريم بهذا الضيق النفسي ، الذي اعترى لوطا بسبب
وجود هؤلاء الضيوف عنده ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « ولما جاءت
رسالتنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا ، وقال هذا يوم عاصيب » (١)

(١) تفسير الألوسي ج ١٤ ص ٦٢

(٢) سورة هود الآية ٧٧

وقال - سبحانه - : « فلما جاء آل لوط المرسلون » مع أن المجيء كان للوط - عليه السلام - والخطاب كان معه ، تمييزاً وتكريماً للمؤمنين من قوم لوط ، فكأنهم كانوا حاضرين ومشاهدين لوجود الملائكة بينهم ، ولما دار بينهم وبين لوط - عليه السلام -

وقوله - سبحانه - : « قالوا بل جئناك بما كنا أوفاه به يعترفون . وأنتناك بالحق وإنا لصادقون » ،
حكاية لما رده الملائكة على لوط ، لكي يزيلوا ضيقه بهم ، وكرهيته لوجودهم عنده .

وقوله « يعترفون » من الاعتراف ، وهو الشك الذي يدفع الإنسان إلى المجادلة المبينة على الآوهام لا على الحقائق .

وهو - كما يقول الامام الفخر الرازي - مأخوذ من قول العرب : مررت بالثاق والشاء إذا أردت حلبها ، فكأن الشاك يجتذب بشكه وراءه ، كاللبن الذي يجتذب عند الحلب . يقال : قد ماري فلان فلانا ، إذا جاء له كأنه يستخرج غضبه ، (١)

أي : قال الملائكة للوط لا تدخل الطمأنينة على نفسه : يا لوط نحن ما جئنا لإزعاجك أو إساءتك ، وإنما جئناك بأمر كان المجرمون من قومك ، يشكون في وقوعه ، وهو العذاب الذي كنت تحذرهم منه إذا ما استمروا في كفرهم وبغورهم ...

ولما ما أتيناك إلا بالأمر ، الثابت المحقق الذي لا مرية فيه ولا تردد ، وهو إهلاك هؤلاء المجرمين من قودك ، ولما لصادقون في كل ما قلناه لك ، وأخبرناك به ، فكن آمناء مطمئنا .

فلا ضراب في قوله « قالوا بل جئناك ... » إنما هو لازالة ما وقر في قلب لوط - عليه السلام - تجاه الملائكة من وساوس وهو اجس .

فكأنهم قالوا له : نحن ما جئناك بشيء قد كره أو تخافه .. وإنما جئناك بما يسرك ويشقى عليك ، إن هؤلاء القوم المنكوسين .
وعبر عن العذاب بقوله : بما كانوا فيه يمترون ، زيادة في إدخال الأناص على نفسه ، لتحقيقا لوفوع العذاب بهم .
وقوله : وأبيناك بالحق ، إنما لصادقون ، تأكيد على تأكيد .

وهذه التأكيدات المتعددة والمتنوعة تتمتع بأن لوطا - عليه السلام - كان في غاية الهم والكرب لمحبي الملائكة إليه بهذه الصورة التي تغري المجرمين بهم دون أن يملك حمايتهم أو الدفاع عنهم .

لذا كانت هذه التأكيدات من الملائكة له في أسنى درجات البلاغة ، حتى يزول خوفه ، ويزداد اطمئنانه إليهم ، قبل أن يخبروه بما أمرهم الله - تعالى - بإخباره به ، وهو قوله - تعالى - فأمر بأهلك بقطع من الليل . واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد ، رماضوا حيث قومرون .

قال القرطبي : قوله : فأمر .. قىء فأمر وقرىء فأمر ، وهوصل الهمزة وقطعها لغتان فصيحتان ،
قال - تعالى - والليل إذا يسر .. ، وقال : سبجان الذي أسرى بعبده ليلا

وقيل : فأمر يقال لمن سار من أول الليل .. وسرى إن سار في آخره ، ولا يقال إن النهار إلا سار ، (١) .

وقوله : بقطع من الليل . ، أى : بجزء من الليل . والمراد الجزء الأخير منه أى : قال الملائكة لوط - عليه السلام - بعد أن أزالوا خوفه منه : يالوط إنما نأمرك - بإذن الله تعالى - أن تخرج من هذه المدينة حتى تسكنها مع قومك وأن تخرج معك أتباعك المؤمنون ، وليكن خروجكم في الجزء الأخير من الليل . وقوله : واتبع أدبارهم ، أى : وكن وراءهم لتطلع عليهم وعلى أحوالهم .

قال الامام ابن كثير : يذكر الله - تعالى - عن الملائكة أنهم أمروا لوطا أن يسرى بأهله بعد مضي جانب من الليل ، وأن يكون لوط - عليه السلام - يمشى وراءهم ليكون أحفظ لهم .
وهكذا كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمشى في العزلة إذا كان يكون ساقية ، يزجي الضعيف ، ويحمل المنقطع ،^(١) .

يقوله ، ولا يلتفت منكم أحد ، أى : ولا يلتفت منكم أحد أيها المؤمنون - خلفه ، حتى لا يرى العذاب الماروع النازل بالمجرمين .
ولما أمرهم - سبحانه - بعدم الالتفات إلى الخلف ، لأن من عادة أتارك لوطه ، أن يلتفت إليه عند مغادرته ، كأنه يودعه .
قال صاحب الكشف : فإن قلت ما معنى أمره باتباع أدبارهم ونهيم عن الالتفات ؟

قلت : قد بعث الله الهلاك على قوم لوط ، ونجاه وأهله لإجابة لدعوتهم عليهم وخرج مهاجرا فلم يكن له بد من الاجتهاد في شكر الله ، وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك ، فأمر بأن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه ، وليكون مطالعا عليهم وعلى أحوالهم ، فلا تفرط منهم انتفاته احتشاما منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحال الموهلة المحذورة ، ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب ، وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدم سر به ويفوت به . ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا له ، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة ، ويمضوا قدما غير ملتفتين إلى ما وراءهم ، كالذي يتحسر على مفارقة وطنه . . .

أو جعل النهي عن الالتفات ، كناية عن مواصلة السير ، وترك التواني والتوقف ، لأن من يلتفت لا بد له في ذلك من أدنى وقفة ،^(٢) .

(١) تفسير ابن كثير - ١ ص ٢٥٩ .

(٢) تفسير الكشف - ٢ ص ٣٩٥ .

وقوله : وامضوا حيث تؤمرون ، إرشاد من الملائكة للوط - عليه السلام - إلى الجهة التي أمره الله - تعالى - بالتوجه إليها .

أى : وامضوا فى سيركم إلى الجهة التى أمركم الله - تعالى - بالسير إليها ، مبتعدين عن ديار القوم المجرمين ، تصحبكم رعاية الله وحمايته .

قيل : أمروا بالتوجه إلى بلاد الشام ، وقيل إلى الأردن ، وقيل إلى مصر . ولم يرد حديث صحيح يحدد الجهة التى أمروا بالتوجه إليها ، ولكن الذى نعتقد أنه ذهبوا بأمر الله - تعالى - إلى مكان آخر ، أهله لم يعملوا ما كان يعمل به العادون من قوم لوط - عليه السلام - .

وقوله - سبحانه - : وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ، بيان لجانب آخر من جوانب الرعاية والتكريم للوط - عليه السلام - .

وعدى : قضينا ، إلى ، لتضمنة معنى أو حيفا والمراد بذلك الأمر : إهلاك الكافرين من قوم لوط - عليه السلام - .
وجملة : أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ، مفسرة ومبينة لذلك الأمر .
وعبر عن عذابهم وإهلاكهم بالإبهام أولا . ثم بالتفسير والتوضيح ثانيا ، للإشعار بأنه عذاب هائل شديد .

ودابرهم : أى آخرهم الذى يدبرهم . يقال : فلان دبر القوم يدبرهم دبورا إذا كان آخرهم فى الحجى . - والمراد أنهم استوصلوا بالعذاب استئصالا .
وقوله : مصبحين ، أى : داخلين فى الصباح ، مأخوذ من أصبح التامة ، وصيغة أفعل تأتى للدخول فى الشئ ، نحو أنجد وأنهم ، أن : دخل فى بلاد نجد وفى بلاد تهامة ، وهو حال من اسم الإشارة هؤلاء ، والعامل فيه معنى الإضافة .

والمعنى : وقضينا الأمر بإبادتهم ، وأوحينا إلى نبيينا لوط عليه السلام - أن آخر هؤلاء المجرمين مقطوع ومستأصل وهلك مع دخول وقت الصباح .

وفي هذا التعبير ما فيه من الدلالة على أن العذاب سيحققهم جميعا ، بحيث لا يبقى منهم أحدا ، لا من كبيرهم ولا من صغيرهم ، ولا من أولهم ولا من آخرهم .

ثم حكى - سبحانه - ما حدث من القوم المجرمين : بعد أن تسامعوا بأن في بيت لوط .. عليه السلام - شيئا فيهم جمال ووضاءة فقال - تعالى - : وجاء أهل المدينة يستبشرون . .

والمراد بأهل المدينة : أهل مدينة سدوم التي كان يسكنها لوط وقومه .

ويستبشرون : أي يبشر بعضهم بعضا بأن هناك شيئا في بيت لوط .. عليه السلام - ، من الاستبشار وهو إظهار الفرح والسرور .
وهذا التعبير الذي صورته الآية الكريمة ، يدل دلالة واضحة على أن القوم قد وصلوا إلى الدرك الأسفل من الانتكاس والشذوذ وانعدام الحياء ...

لأنهم لا يأتون لارتكاب المتكرّر فردا أو أفرادا ، وإنما يأتون جميعا - أهل المدينة - وفي فرح وسرور ، وفي الجهر والعلانية ، لا في السر والخفاء ...

ولأي غرض يأتون ؟ لأنهم يأتون لارتكاب الفاحشه التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .

وهكذا النفوس عندما ترتكس وتنتكس ، تصل في مجاهرتها بإتيان الفواحش ، إلى ما لم تصل إليه بعض الحيوانات ...

ويقف لوطا - عليه السلام - أمام شذوذ قومه مغيظا مكروها ، يحاول أن يدفع عن ضيفه شروره ، كما يحاول أن يحرك فيهم ذرة من الأدمية فيقول لهم : « إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ،

وتفضحون : من الفضح والفضيحة . يقال فضح فلان فلانا فضحا وفضيحة ، إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بسببه .

أى : قال لوط - عليه السلام - لمن جاؤا يهرعون إليه من قومه لارتكاب الفاحشة مع ضيوفه : يا قوم إن هؤلاء الموجودين عندي ضيوف في الدين يلزمى حمايتهم ، فابتعدوا عني داري وعودوا إلى دياركم ، ولا تفضحون عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فأهون في نظرهم ، لعجزى عن حمايتهم ، وأنتم تعلمون أن كرامة الضيف جزء من كرامه مضيقه ...

وعبر لوط - عليه السلام - عن الملائكة بالضيف لأنه لم يكن قد علم أنهم ملائكة ولأنهم قد جاؤا إليه في هيئة الآدميين .

ثم أضافه لوط - عليه السلام - إلى رجاء قومه رجاء آخر ، حيث ذكرهم بتقوى الله فقال : « واتقوا الله ولا تخزون » .

أى : واتقوا الله وصونوا أنفسكم عن عذابه وغضبه ، ولا تخزون مع ضيفي ، وتذلوني وتهينوني أمامهم .

يقال : خزي الرجل يخزي خزيا وتخزي ، إذا وقع في مصيبة فذل لذلك ولم يكن هذه النصائح الحكيمه من لوط - عليه السلام - لقومه ، لم تجد أذنا صاغية ، بل قابلوها بسوء الأدب معه ، وبالتطاول عليه ، بشأن الطغاة الفجرة « قالوا أولم تنهك عن العالمين »

والاستفهام للانكار . ولو لو للعطف على محذوف ، والعالمين : جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله - تعالى - والمراد بالعالمين هنا : الرجال الذين كانوا يأتون معهم الفاحشة من دون النساء .

أى : قال قوم لوط له بوقاحة وسوء أدب . أو لم يسبق لنا بالوط أننا نهيناك عن أن تحول بيننا وبين من نريد ارتكاب الفاحشة معه من الرجال ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف ساغ لك بعد هذا النهي أن تمنعنا عما نريده من ضيوفك وأنت تعلم ما نريده منهم ؟

ولكن لوطا - عليه السلام - مع شناعة قولهم هذا ، لم ييأس من عارلة منعهم عما يريدونه من ضيوفه ، فأخذ يرشدهم إلى ما تدعو إليه الفطرة السليمة فقال : « هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين »

والمراد ببنيانه هنا : زوجاتهم ونسأؤهم اللاتي يصلحن الزواج . وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبي أب لأُمَّته من حيث الشفقة والرعاية وحسن التربية .
قال ابن كثير ما ملخصه : يرشد لوطا - عليه السلام - قومه إلى نساءهم فإن النسي للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم ، كما قال - تعالى -
في آية أخرى : أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ، (١)

وقيل المراد ببنيانه هنا : بناته من صلبه ، وأنه عرض عليهم الزواج بهن ويضعف هذا الرأي أن لوطا - عليه السلام - كان له بنتان أو ثلاثة كما جاء في بعض الروايات ، وعدد المتدافعين من قومه إلى بيته كان كثيرا ، كما يرشد اليه قوله - تعالى - « وجاء أهل المدينة يستبشرون ، فكيف تمكفهم بنتان أو ثلاثة للزواج بهن ؟ »

قال الإمام الرازي في ترجيح الرأي الأول ما ملخصه : « وهذا القول عندي هو المختار ، ويدل عليه وجوه منها : أنه قال هؤلاء بناتي ... وبناته اللاتي من صلبه لا تمكنني هذا الجمع العظيم ، أما نساء أمته ففحين كفاية للكل ومنها : أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان وهما : ذنن وازعورا ، وإطلاق لفظ البنات على البنيتين لا يجوز ، لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة ، (١) »

والمعنى : أن لوطا - عليه السلام - لما رأى هيجان قومه ، وإصرارهم على ارتكاب الفاحشة مع ضيوفه ، قال لهم على سبيل الإرشاد إلى ما يشبع الفطرة السليمة : يا قوم هؤلاء نسأؤكم اللاتي هن بمنزلة بناتي ، فاقضوا معهن شهواتكم إن كنتم فاعلين ، لما أرشدكم اليه من توجيهات وآداب .

وعبر بيان في قوله « إن كنتم فاعلين » لشكه في إستجابتهم لما يدعوه اليه فكأنه يقول لهم : إن كنتم فاعلين لما أطلبه منكم ، وما أطلبكم تفعلونه لانتكاس فطر قسكم ، وإنقلاب أمر جتكم ..

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٦٨

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٨ ص ٢٢

وجواب الشرط محذوف، أى : إن كفتهم فاعلين ما أُرشدكم إليه فهو خير لكم وقوله - سبحانه - : « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » يرى جمهور المفسرين أنه كلام معترض بين أجزاء قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، لبيان أن الموعدة لا تجدى مع الغفوم الغاوين ، ولتسليية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من سفهاء قومه .

فالخطاب فيه للنبي - صلى الله عليه وسلم - واللام فى « لعمرك » لام القسم ، والمقسم به حياته - صلى الله عليه وسلم - والعمر - بفتح العين - لغة فى العمر - بضمها ، ومعناها : مدة حياة الإنسان وبقائه فى هذه الدنيا ، إلا أنهم الزموا مفتوح العين فى القسم ، وهو مبتدأ وخبره محذوف وجوبا والتقدير لعمرك قسمى أو يمينى .

والسكرة : ذهاب العقل ، مأخوذة من السكر - بفتح العين - وإسكان المكاف - وهو السد والإغلاق . وأطلقت هنا على الغواية والضلالة لأن التهما الرشد والهداية و « يعمهون » من العمه بمعنى التحير والتردد فى الأمر . وهو للبصيرة بمنزلة العمى للبصر .

يقال : عمه فلان - كفرح - عمها ، إذا تردد وتحير ، فهو عمه وعامه ، وهم عمهون وعمه - كركع -

والمعنى : بحق حياتك - أيها الرسول الكريم - إن هؤلاء المكذبين لك ، أفي غفلتهم وغوايتهم يترددون ويتحيرون ، شأنهم فى ذلك شأن الضالين من قبلهم كقوم لوط وقوم شعيب وقوم صالح ، وغيرهم من المتكبرين فى الأرضين بغير الحق . .

قال الآلوسى : وقوله « لعمرك » قسم من الله - تعالى - بعمري نبينا - صلى الله عليه وسلم - على ما عليه جمهور المفسرين . وأخرج البيهقي فى الدلائل ، وأبو نعيم وابن مردويه وغيرهم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ما خلق الله - تعالى - وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد - صلى الله

عليه وسلم - وما سمعت الله - تعالى - أقسم بحياة أحد غيره ، لنى - تعالى - :
 « لعمر ك أنهم لنى سكرتهم يعمهون ، وقيل هو قسم من الملائكة بعمر لوط
 - عليه السلام - ، وهو مغ خالفته المأثور وحجاج لتقدير اقول ، أى -
 قالت الملائكة للوط - عليه السلام - لعمر ك . . وهو خلاف الأصل وإن
 كان سياق القصة شاعدا له وقرينة عليه . » (١)

ثم ختم - سبحانه - القصة ببيان النهاية الآتية لهؤلاء المفسدين من قوم لوط
 فقال - تعالى - : « فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها ، ومطرنا عليهم
 حجارة من سجيل ،

والصيحة : من الصياح وهو الصوت الشديد . يقال : صاح فلان إذا
 رفع صوته بشدة . وأصل ذلك تحقيق الصوت من قولهم : انصاح الخشب
 أو الثوب ، إذا لانشق فسمع منه صوت . قالوا : وكل شئ أهلك به قوم فهو
 صيحة وصاعقة .

« مشرقين » : اسم فاعل من أشرقوا إذا دخلوا فى وقت شروق الشمس ،
 أى : أن الله - تعالى - بعد أن أخبر لوطا - عليه السلام - بإهلاك قومه ، وأمره
 عن طريق الملائكة بالخروج ومعه المؤمنون من هذه المدينة . . جاءت
 الصيحة الهائلة من السماء فأهلكتهم جميعاً وهم داخلون فى وقت شروق الشمس .
 وقال - سبحانه - قبل ذلك : « وقضينا لإيه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء
 مقطوع مصبحين » ، وقال هنا فأخذتهم الصيحة مشرقين ، للإشارة إلى أن
 ابتداء عذابهم كان عند الصباح وإنتهاءه بإسئصال شأفتهم كان مغ وقت
 الشروق .

والضمير فى قوله « عاليها وسافلها » يعود إلى المدينة التى كان يسكنها
 المجرمون من قوم لوط .

أى : فجعلنا بقدرتنا على هذه المدينة سافلاً ، بأن قلبناها قلباً كاملاً

وأمطرنا عليهم ، أى على هؤلاء المجرمين من قوم لوط وحجارة ، كائنة ، من سجل ، أى من طين متحجر . فهلكوا جميعا .

وهكذا أخذ الله - تعالى - هؤلاء المجرمين أخذ عزيز مقدر ، حيث أمسكهم بهذه العقوبة التى تناسب مع جريمتهم ، فهم قلبوا الأوضاع ، فأتوا بفاحشة لم يسبقوا إليها ، فانتقم الله - تعالى - منهم بهذه العقوبة التى جعلت أعلى مساكنهم أسفلها .

ثم ساقَت السورة الكريمة بعض العبر والعظات التى يمتدى بها العقلاء من قصتي إبراهيم ولوط - عليهما السلام - كما ساقَت بعد ذلك جانباً من قصتي شعيب وصالح - عليهما السلام - فقال - تعالى - :

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَّعِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مَّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ فُكَّاوَاغْنَاهُمْ عَنْهَا مُمْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا آمَنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَاغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) .

فأسم الإشارة فى قوله - سبحانه - : « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » ، يعود إلى ما قضمته القصة السابقة من عبر وعظات .

والآيات جمع آية ، والمراد بها هنا الأدلة والعلامات الدالة على ما يوصل إلى الحق والهداية . والمتوسمون : جمع المتوسم ، وهو المتأمل فى الأسباب وعواقبها ، وفى المقدمات ونتائجها .

فإن القرطبي ما ملخصه : التوسم تفعل من الرسم ، وهى العلامة التى يستدل بها على المطلوب غيرها . يقال : توسمت فى فلان الخير ، إذا رأيت به سم ذلك فيه ، ومنه قول عبد الله بن رواحه للنبي - صلى الله عليه وسلم - .

لأنى توسمت فيك الخير أعرفه والله يعلم أنى ثابت البصر وأصل التوسم : التثبت والتفكير ، مأخوذ من الوسم وهو التأثير بمحيدة في جلد البعير وغيره ...

وذلك يكون بمجودة القرينة ، وحدة الخاطر ، وصفاء الفكر ، وتطهير القلب من أدناس المعاصي .

والمراد بالمتوسمين : المتفكرين ، أو المتفكرين ، أو المتبحرين ، أو المتبحرين .. والمعنى متقارب ... (١) .

والمعنى : إن في ذلك لذي سبقناه في قصتي إبراهيم ولوط - عليهما السلام - لأدلة واضحة على حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين ، لمن كان ذا فكر سليم ، وبصيرة نافذة تتأمل في حقائق الأشياء ، وتتعرف على ما يوصلها إلى الهداية والطريق القويم .

قال بعض العلماء عند تفسيره لهذه الآية : هذه الآية أصل في الفراسة . أخرج الترمذى من حديث أبي سعيد مرفوعاً : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ، ثم قرأ - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية ...

وقد أجاد الكلام في الفراسة ، الراغب الأصفهاني في كتابه « الذريعة » حيث قال في الباب السابع : وأما الفراسة ، فالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على أخلاقه وفضائله ورذائله ...

وقد نبه - سبحانه - على صدقها بقوله « إن في ذلك لآيات للمتوسمين » ، وبقوله « تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً » (١) . وبقوله « ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول » (٢) ...

ولفظها مأخوذ من قولهم « فرس السبع الشاه » فكأن الفراسة اختلاس المعاني (٣) (٤)

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٤٢

(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٣ (٣) سورة محمد الآية ٣٠

(٤) راجع تفسير القاسمي ج ١٤ ص ٣٧٦٤

وفي هذه الآية الكريمة تعريض لمن تمر عليهم العبر والعظات . والأدلة الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وكمال قدرته ... فلا يعتبرون ولا يتعظون ولا يتفكرون فيها ، لانطاس بصيرتهم ، واستيلاء الأهواء والشهوات على نفوسهم ، كما قال - تعالى - : « وكأين من آية في السموات والأرض يمررون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله ، إلا وهم مشركون ، (٤) » .

والضمير في قوله - سبحانه - (ولأنها لبسبيل مقيم) يعود إلى المدينة أو القرى التي كان يسكنها قوم لوط - عليه السلام - .

أي : وإن هذه المساكن التي كان يسكنها هؤلاء المجرمون ، لطريق ثابت واضح يملكه الناس ، ويراه كل مجتاز له وهو في سفره من الحجاز إلى الشام ، كما قال - تعالى - (ولأنكم لتقرن عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون) (٥) : والمقصود تذكير كفار قريش وغيرهم بعاقبة الظالمين ، حتى يقلعوا عن كفرهم وجحودهم ، وحتى يعتبروا ويتعظوا ، ويدخلوا مع الداخلين في دين الإسلام . وقوله - سبحانه - : (إن في ذلك لآية للذين آمنوا) تدبيل قصد به التعميم بعد التخصيص ، لأن اسم الإشارة هنا يعود إلى جميع ما تقدم من قصتي إبراهيم ولوط - عليهما السلام - وإلى ما انضم إليهما من التذكير بآثار الأقوام المهلكين .

أي : أن فيما ذكرناه فيما سبق من أدله واضحة على حسن عاقبة المتقين ، وسوء نهاية الظالمين ، لعبرة واضحة ، وحكمة بالغة ، للمؤمنين الصادقين . وخصهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون بالأدلة والعظات ، وللتنبية على أن التفرد في الأمور لمعرفة أسبابها ونتائجها من صفاتهم وحدهم . وجمع الآيات قبل ذلك في قوله : « إن في ذلك لآيات للمتوسمين » ، وأفردها هنا فقال : « إن في ذلك لآية للمؤمنين » ، للاشعار بأن المؤمنين الصادقين تكفي

(١) سورة يوسف الايتان ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) سورة الصافات الايتان ١٣٧ ، ١٣٨ .

لهدايتهم ، وازيادة إيمانهم ، آية واحدة من الآيات الدالة على أن دين الإسلام هو الدين الحق ، وفي ذلك ما فيه من الثناء عليهم ، والمدح لهم ، بصدق الإيمان ، وسلامة اليقين ...

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانباً من قصة أصحاب الأيكة ازيادة العظاات والعبر ، فقال - تعالى - : وإن كان أصحاب الأيكة ظالمين . فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين ، و (إن) هي المخففة من الثقيلة ، وأسماها ضمير الشأن المحذوف .

وأصحاب الأيكة ، هم قوم شعيب - عليه السلام - ، والأيكة الشجر الكعير الملتف واحده أيككة - كتمر وتمره -

والمراد بها البقعة الكثيرة الأشجار التي كانت فيها مساكنهم ، قرب مدين قرية شعيب - عليه السلام - .

وحمور العلماء على أن أهل مدين وأصحاب الأيكة قبيلة واحدة ، وأرسل الله - تعالى - إليهم جميعاً شعيباً - عليه السلام - لأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، ونهيهم عن تظفيف المكيل والميزان ، وعن قطع الطريق ... وكانوا جميعاً يسكنون في المنطقة التي تسمى بعمان ، على حدود الحجاز والشام ، أو أن بعضهم كان يسكن الحاضرة وهم أهل مدين ، والبعض الآخر كان يسكن في البوادي المجاورة لها ، والمليئة بالأشجار .

وقيل : إن شعيباً - عليه السلام - أرسل إلى أمتين : أهل مدين ، وأصحاب الأيكة ، وهذه خصوصية له - عليه السلام - .

وعلى أية حال فالعلماء متفقون على أن أصحاب الأيكة هم قوم شعيب - عليه السلام - .

والإمام : الطريق الواضح للعالم . وسمى الطريق إماماً لأن المسافر يأتم به ، ويمتدى بمسالكه ، حتى يصل إلى الموضع الذي يريد .

والمادى : وإن الشأن والحال أن أصحاب الأيكة كانوا ظالمين متجاوزين لكل حد ، فاقتضت عدالتنا أن نتقم منهم ، بسبب كفرهم وبجورهم .

« ولأنهما ، أى مساكن قوم لوط ، ومساكن قوم شعيب ، ليأمام مبين ،
أى : لطريق واضح يأتون به أهل مكة في سفرهم من بلادهم إلى بلاد الشام .
قال ابن كثير : وقد كانوا - أى أصحاب الأيكة - قريباً من قوم لوط ،
بعدهم في الزمان ، ومساكنهم لهم في المكان ، ولهذا لما أُنذر شعيب قومه قال
في إنذاره لهم (وما قوم لوط منكم ببعيد) (١) .

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن قصص الأنبياء مع أقوامهم بجانب
من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه . فقال - تعالى - : ولقد كذب أصحاب
الحجر المرسلين (.....)

وأصحاب الحجر : هم ثمود قوم صالح - عليه السلام - .

والحجر : واد بين الشام والمدينة المنورة ، كان قوم صالح يسكنونه .
والحجر في الأصل : كل مكان أحاطت به الحجارة ، أو كل مكان محجور أى
ممنوع من الناس بسبب اختصاص بعضهم به .

وما زال هذا المكان يعرف إلى الآن باسم مدائن صالح على الطريق من
خيبر إلى تبوك ، كما أشرنا إلى ذلك عند التعريف بالسورة الكريمة .

وقال - سبحانه - : ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين (مع أنهم لم
يكذبوا إلا رسولهم - عليه السلام - ، لأن تمكذيب رسول واحد ، وتمكذيب
جميع الرسل ، حيث إن رسالتهم واحدة ، وهى الأمر بإخلاص العبادة لله
- تعالى - وحده ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والنهي عن الرذائل والمقاسد .

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا التمكذيب لرسولهم - عليه السلام - فقال :
(وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين) .

أى : وأعطينا قوم صالح - عليه السلام - آياتنا الدالة على صدقه وعلى أنه
رسول من عندنا ، والى من بيننا الذاقة التى أخرجها الله - تعالى - لهم ببركة
دعاه فيهم (فكانوا عنها) أى عن هذه الآيات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا

(معرضين) لا يلتفتون إليها، ولا يفكرون فيها، ولهذا عقروا الناقة. وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح أئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين.

تم بين - سبحانه - بعض مظاهر حضارتهم وتحصنهم في بيوتهم المنحوتة في الجبال فقال - تعالى - وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين .

وينحتون : من النحت وهو برى الحجر من وسطه أو جوافه ، لإعداده للبناء أو للسكن أى : وكانوا لقوتهم وغناهم يتخذون لأنفسهم بيوتا في بطون الجبال وهم آمنون مطمئنون ، أو يقطعون الصخر منها ليتخذوه بيوتا لهم .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين (١) ، أى : حاذقين في نحتها . وقوله - تعالى - واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا (٢) .

قال ابن كثير : ذكر - تعالى - أنهم (كانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) أى : من غير خوف ولا احتياج إليها ، بل أشرا و بطرا و عبثا ، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بواضى الحجر ، الذى مر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو ذاهب إلى تبوك فقمع رأسه - أى غطاها بثوبه - وأسرع دابته ، وقال لأصحابه : لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين ، إلا أن تسكنوا بأكين ، فإن لم تبكوا فتبكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم (٣) .

ولاكن ماذا كانت نتيجة هذه القوة العاشمة ، والثراء الذى ليس معه شكر لله - تعالى - والإصرار على الكفر والكذب لرسول الله - تعالى - ، والإعراض عن الحق ... ؟

لقد بين القرآن عاقبه ذلك فقال : (فأخذتهم الصيحة مصبحين . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) .

أى : فكانت نتيجة تكذيب أصحاب الحجر لرسولهم صالح - عليه السلام -

(١) سورة الشعراء الآية ١٤٩ (٢) سورة الأعراف الآية ٧٩

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٦٣

أَن أَمْلِكُهُمُ اللَّهُ - تعالى - وهم داخلون في وقت الصباح ، عن طريق الصبيحة الهائلة ، التي جعلتهم في ديارهم جائعين ، دون أَن يغنى عنهم شيئاً ما كانوا يكسبونه من جمع الأموال ، وما كانوا يصنعونه من نحت البيوت في الجبال . وهكذا نرى أَن كل وقاية ضائعة ، وكل أمان ذاهب ، وكل تحصن زائل أمام عذاب الله المسلط على أعدائه المجرمين .

وهكذا تنتهي تلك الحلقات المتصلة من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم والتي تتفق جميعها في بيان سنة من سنن الله - تعالى - في خلقه ، وهي أَن النجاة والسعادة والنصر للمؤمنين ، والهلاك والشقاء والهزيمة للمكذبين .

ثم ختمت السورة الكريمة ببيان كمال قدرة الله - تعالى - ، وبيان جانب من النعم التي منحها - سبحانه - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، وبتهديد المشركين الذين جعلوا القرآن عضين ، والذين جعلوا مع الله إلهاً آخر ، وبتسليمته - صلى الله عليه وسلم - عما لحقه منهم من أذى ، فقال - تعالى - :

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمْدُدْ عَيْنَيْكَ إِلَّا مَا مَتَّعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا حَاكَ الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمَشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) وَاهْبُذْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٨) .

فقله - سبحانه - (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) توجيه للناس إلى التأمل في مظالم قرة الله - تعالى - ، وإلى الحق الأكبر الذي قام عليه هذا الوجود ، بعد أن بين - سبحانه - قبل ذلك ، سفته التي لا تتخلف ، رغم أن حسن العاقبة للمتقين ، ووهو المصير للمسكدين .
والحق : هو الأمر الثابت الذي تقتضيه عدالة الله - تعالى - وحكمته .
والباء فيه للملابسة .

أى : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من كائنات لا يعطها إلا الله ، إلا خلقا ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل ، وبالمعدل الذي لا يخالطه جور وبالحكمة التي تنزهه عن العيب ، وتأبى استمرار الفساد ، واستبقاء ضعف الحق أمام الباطل .

والمراد بالساعة في قوله - تعالى - : « وإن الساعة لآتية » : ساعة البعث والحساب والشراب والعقاب في الآخرة .

أى : وإن ساعة إعطاء كل ذى حق حقه ، ومعاقبة كل ذى باطل على باطله ، لآتية لا ريب فيها ، فمن فازه أخذ حقه في الدنيا فسيأخذه وأفيا غير منقوص في الآخرة ، ومن أفلت من عقوبه الدنيا فسينال ما هو أشد وأخزى منها في يوم الحساب .
فالجملة العكسية لانتقال من تهديد المجرمين بعذاب الدنيا ، إلى تهديدهم بعذاب الآخرة ، والمقصود من ذلك تسليته - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من المسكدين من أذى .

وأكد - سبحانه - هذه الجملة بأن وبلاد التوكيد ، ليدل على أن الساعة آتية لا محالة ، وليخرس ألسنة الذين ينكرون وقوعها وحدوثها ...

وجملة « فاصفح الصفح الجميل » ، تفريع على ما قبلها .

والصفح الجميل : ترك المؤاخذه على الذنب ، وإغضاء الطرف عن مرتكبه بدون معاقبة .

أى : مادام الأمر كما ذكرنا لك أيها الرسول الكريم - من أن هذا الكون

قد خلقنا بالحق ، ومن أن الساعة آتية لا ريب فيها ... فاصفح عن هؤلاء
المكذبين لك صفحا جميلا ، لا عتاب معه ولا حزن ولا غضب ... حتى يحكم
الله بينك وبينهم .

وهذا التعبير فيه ما فيه من تسليته - صلى الله عليه وسلم - وتكريمه ، لأنه
- سبحانه - أمره بالصفح الجميل عن أعدائه ، ومن شأن الذي يصفح عن غيره ،
أن يكون أقوى وأعز من هذا الغير - فكأنه - سبحانه - يقول له : اصفح عنهم
فعما قريب ستكون لك الكلمة العليا عليهم .

وشئيه بهذه الآية قوله - تعالى - : فاصفع عنهم وقل سلام فسوف
يعلمون ، (١) .

وقوله - سبحانه - : فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على
شيء قدير ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : إن ربك هو الخلاق العليم ، تعليل للأمر بالصفح
الجميل عنهم .

والخلاق والعليم : صيغتا مبالغة من الخلق والعلم ، للدلالة على كثرة خلقه ،
وشمول علمه .

أي : إن ربك ، أيها الرسول الكريم ، الذي ربك برعايته وعنايته ،
واختارك لحل رسالته ، هو - سبحانه - الخلاق ، لك ولهم ولكل شيء في
هذا الوجود .

والسليم : بأحوالك وبأحوالهم ، وبما يصلح لك ولهم والسبل الكائنات .
وقد علم - سبحانه - أن الصفع عنهم في هذا الوقت فيه المنفعة لك ولهم ،
لحقيق بك - أيها الرسول الكريم - أن تطيعه - سبحانه - ، وأن تكل الأمور - إليه .
ولقد تحقق الخير من وراء هذا التوجيه السديد من الله - تعالى - لنبيه

(١) سورة الزخرف الآية ٨٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٠٩ .

- صلى الله عليه وسلم - فقد ترتب على هذا الصفح : النصر للنبى - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين ، والهداية لبعض الكافرين وهم الذين دخلوا فى الإسلام بعد نزول هذه الآية ، وصاروا قوة للدعوة الإسلامية بعد أن كانوا حربا عليها ، وتحقق - أيضا - قوله - صلى الله عليه وسلم - : « لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله - عز وجل - » .

ثم أتبع - سبحانه - هذه التسليية والبشارة للرسول - صلى الله عليه وسلم - بمئة ونعمة أجل وأعظم من كل ما سواها ، ليزيده اطمئنانا ونقه بوعده الله - تعالى - فقال : « وقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم » .

والمراد بالسمع المثاني : سورة الفاتحة . وسميت بذلك ، لأنها سبع آيات ، ولأنها تنهى أى تكرر فى كل ركعة من ركعات الصلاة .

قال صاحب الكشف : والمثاني من التثنية وهى التكرير للشيء . لأن الفاتحة تكرر قراءتها فى الصلاة . أو من التناء ، لاشتغالها على ما هو تناء على الله - تعالى - ... ، (١)

والمعنى : ولقد أعطيناك - أيها الرسول الكريم - «سورة الفاتحة» التى هى سبع آيات ، والتى تعاد قراءتها فى كل ركعة من ركعات الصلاة ، وأعطيناك - أيضا - القرآن العظيم الذى يهدى للطريق التى هى أقوم .

وأوثر فعل «آتيناك» بمعنى أعطيناك على أوحينا إليك ، أو أنزلنا عليك ؛ لأن الإعطاء أظهر فى الإكرام والإناعام .

وقوله « وقرآن العظيم » معطوف على «سبعا» من باب عطف الكل على الجزء ، اعتناء بهذا الجزء .

ووصف - سبحانه - القرآن بأنه عظيم : تنويها بشأنه ، وإعلاء لقدره .

وعما يدل على أن المراد بالسبع المثاني سورة الفاتحة ما أخرجه البخاري بسنده عن أبي سعيد بن المعلى قال: مررت بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وأبأ أصلي، فدعاني فلم آتته حتى صليت، ثم أتته فقال: ما منعك أن تأتيني؟ فقلت: كنت أصلي.

وقال: ألم يقل الله: يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم، ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟ ثم ذهب النبي - صلى الله عليه وسلم - ليخرج، فذكرته فقال: دأخذ الله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.

وروى البخاري - أيضا - عن أبي هريرة قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم - ...: أم القرآن هي: السبع المثاني، والقرآن العظيم.

هذا، وهناك أقوال أخرى في المقصود بالسبع المثاني، ذكرها بعض المفسرين فقال: اختلف العلماء في السبع المثاني: ف قيل الفاتحة. قاله على ابن أبي طالب، وأبو هريرة، والربيع بن أنس، وأبو العافية، والحسن وغيرهم. وروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من وجوه ثابتة من حديث أبي بن كعب وأبي سعيد بن المعلى ...

وقال ابن عباس: هي السبع الطوال: نبقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال والتوبة معا ...

وأكثر قوم هذا وقالوا: أنزلت هذه الآية بمكة، ونزلت من السبع الطوال شيء، إذ ذاك.

وقيل: المثاني القرآن كله، قال الله تعالى - «كتابا متشابها مثاني». هذا قول الضحاك وطاووس، وقاله ابن عباس. وقيل له: دشاني، لأن الأبناء والقصص تنبت فيه ...

وقيل : المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن من الأمر والنهي والتبشير والإيذار . . .

ثم قال : والصحيح الأول لأنه نص . وقد قدمنا في الفاتحة أنه ليس في تسميتها بالمثاني ما يمنع من تسمية غيرها بذلك ، إلا أنه إذا ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وثبت عنه نص في شيء لا يحتمل التأويل ، كان الوقوف عنده (١) .

والذي زاه ، أنه المقصود بالسبع المثاني هنا : سورة الفاتحة ، لثبوت النص الصحيح بذلك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ومتى ثبت الغص الصحيح عنه - صلى الله عليه وسلم - في شيء فلا كلام لأحد معه أو بعده - صلى الله عليه وسلم - .

ثم نهى الله - تعالى - المسلمين في شخص نبيهم - صلى الله عليه وسلم - عن التطلع إلى زينة الحياة الدنيا ، فقال - تعالى - : ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم . . .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : كيف وصل هذا بما قبله ؟

قلت : يقول الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - : قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة ، وهي القرآن العظيم ، فملكك أن تستغنى به ، ولا تمدن عينيك إلى متاع الدنيا . . .

قال أبو بكر الصديق : من أوتي القرآن ، فرأى أن أحدا أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي ، فقد صغر عظميا ، وعظم صغيرا (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٥٥

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٣٩٨

وقال ابن كثير: وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن وكيع بن الجراح، قال: حدثنا موسى بن عبيدة، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي رافع صاحب النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: أضاف النبي - صلى الله عليه وسلم - ضيف، ولم يكن عنده - صلى الله عليه وسلم - شيء يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: يقول لك محمد رسول الله: أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب. قال اليهودي: لا إلا برهن. فأتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته، فقال: أما والله إنني لأؤمن من في السماء، وأدين من في الأرض، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إياه. فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية: «لا تمدن عينيك، كأنه - سبحانه - يعزيه عن الدنيا» (١).

وقوله - سبحانه - «تمدن، من المد، وأصله الزيادة». واستعير هنا للتمطلع إلى ما عند الغير بزغبة وتمن وإعجاب. يقال: مد فلان عينه إلى مال فلان، إذا اشتهاه وتمناه وأرادَه.

والمراد بالأزواج: الأصناف من السكفار الذين متهم الله بالكثير من زخارف الدنيا.

والمعنى: لا تحفل - أيها الرسول الكريم - ولا تطمح ببصرك طموح الراغب في ذلك المتاع الزائل، الذي متع الله - تعالى - به أصنافاً من المشركين فإن ما بين أيديهم منه شيء سيقتفى عما قريب، وقد آتاهم الله - تعالى - إياه على صيل الاستدراج والإملاء، وأعطاك ما هو خير منه وأبقى، وهو القرآن العظيم.

قال صاحب الظلال: والعين لا تمتد - إنما يمتد البصر أي: يتوجه - ولكن التعبير التصويري يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع. وهي صورة طريقة حين يتخيلها المتخيل...

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٦٦.

والمعنى وراء ذلك ، ألا يحفل الرسول - صلى الله عليه وسلم - بذلك المتاع الذى آتاه الله - تعالى - لبعض الناس ... ولا يلقى إليه نظرة اهتمام ، أو نظرة استحمال ، أو نظرة تمن ، (١) .

وقال - سبحانه - هنا : لا تمدن ... بدون واو العطف ، وقال فى سورة طه : ولا تمدن ... ، بواو العطف ، لأن الجملة هنا مستأنفة اسمتنافا ببيانها ، جوابا لما يحتلج فى نفوس بعض المؤمنين من تساؤل عن أسباب الإملاء والعطاء الدنيوى لبعض الكافرين . ولأن الجملة السابقة عليها وهى قوله : ولقد آتيناك سبعا من المثافى ... ، كانت بمنزلة التمهيد لها ، والإجمال لمضمونها .

أما فى سورة طه ، فجملة : ولا تمدن ... ، معطوفة على ما سبقها من طلب وهو قوله - تعالى - : فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آتاء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا ... ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : ولا تحزن عليهم ، نهى له - صلى الله عليه وسلم - عن الاهتمام بالمصير السيئ الذى ينتظر أعدائه .

أى : ولا تحزن - أيها الرسول الكريم - لكفر من كفر من قومك ، أو لموتهم على ذلك ، أولا عراضهم عن الحق الذى جنتهم به ، فإن القلوب بأيدينا نصرها كيف نشاء ، أما أنت فعليك البلاغ .

وقوله - سبحانه - : وأخفض جناحك للمؤمنين ، بيان لما يجب عليه نحو أتباعه ، بعد بيان ما يجب عليه نحو أعدائه .

وخفض الجناح كناية عن اللين والمودة والعطف .

(١) تفسير فى ظلال القرآن ج ١٤ ص ٣١٥٤

(٢) سورة طه الآيتان ١٣٠ ، ١٣١

أى : وكن متواضعا مع أتباعك المؤمنين ، وموافقهم ، عطفوا عليهم .
قال الشوكاني : وخفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب ...
وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إليه بسط جناحه ثم قبض على الفرخ ، فجعل
ذلك وصفا لتواضع الإنسان لاتباعه... والجناحان من ابن آدم : جانباؤه .^(١)
وقوله - سبحانه - : « وقل لى انا النذير المبين ، معطوف على ما قبله .

أى : لانتحزن - أيها الرسول الكريم - على مصير الكافرين ، وتواضع
لأتباعك المؤمنين ، وقل للأناس جميعا ما قاله كل نبى قبلك لقومه : لى أنا
المنذر لكم من عذاب الله إذا ما بقيتم على كفركم ، الموضح لكم كل ما يخفى عليكم .
فالتنذير هنا بمعنى المنذر ، والمبين بمعنى الكاشف والموضح .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى عن النبى - صلى الله عليه وسلم -
قال : إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم ، لى
رأيت الجيش بعينى ، ولى أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة
من قومه فأدجلوا ، وانطلقوا على مهملهم فنجوا . وكذب طائفة منهم فأصبحوا
مكائهم ، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم .

فذلك مثل من أطاعنى وأتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت
به من الحق ،^(٢) .

ثم هدد - سبحانه - الذين يحاربون دعوة الحق ، ويصفون القرآن بأوصاف
لاتليق به فقال - تعالى - : « كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن
عضيما ، ... »

والكاف فى قوله « كما » ، للتشبيه ، و « ما » موصولة أو مصدرية وهى المشبهة
به أما المشبهة فهو الايتاء المأخوذ من قوله - تعالى - « ولقد آتيناك سبعا من المثاني ، » .

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ١٤٢

(٢) صحيح البخارى : كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنن رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - ج ٩ ص ١١٥ . وصحيح مسلم كتاب الفضائل ج ٧ ص ٩٣

ولفظ : المقتسمين ، افتعال من القسم بمعنى تجزئة الشيء ، ويجزئ أقساما ..
والمراد بهم بعض طوائف أهل الكتاب ، الذين آمنوا ببعضه وكفروا
بالبعض الآخر .

أو المراد بهم - كما قال ابن كثير - : المقتسمين ، أى المتحالفين ، أى
الذين تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم ... (١) .

ولفظ : عضين ، جمع عضه - بزة عزة - ، وهى الجزء ، والقطعة من الشيء .
تقول : عضيت الشيء تعضية ، أى : فرقته وجعلته أجزاء كل فرقة عضه .

قل القرطبي مالم يخلصه : وواحد العضين عضه ، من عضيت الشيء تعضية أى
فرقته ، وكل فرقة عضه . قال الشاعر : وليس دين الله بالمعضى . أى : بالمفرق .

والعضه والعضين فى لغة قريش السحر . وهم يقولون للساحر عاضه ،
وللساحرة عاضية ...

وفى الحديث : لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - العضة والمستعضية
أى الساحرة والمستسحرة .. وقيل : هو من النضة ، وهى النيمة . والعضية
البهتان .. يقال : أعضت يافلان أى : جئت بالبهتان ، (٢) .

والمعنى : ولقد آتيناك - أيها الرسول الكريم - السبع المثاني والقرآن
العظيم ، مثلى ما أنزلنا على طوائف أهل الكتاب المقتسمين ، أى الذين قسموا
كتابهم أقساما ، فأظهروا قسما وأخفوا آخر ، والذين جعلوا - أيضا - انقرآن
أقساما ، فآمنوا ببعضه ، وكفروا بالبعض الآخر ..

فجعله - الذين جعلوا القرآن عضين ، بيان وتوضيح للمقتسمين .

ومنهم من يرى أن قوله - تعالى - : كما أنزلنا على المقتسمين ... ، متعلق
بقوله - تعالى - قبل ذلك ، : وقل لى أنا النذير المبين ، فيكون المشبه الانذار
بالعقاب المفهوم من الآية الكريمة .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٦٦

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٥٩

وأن المراد بالمقتسمين: جماعة من مشركي قريش، قسموا أنفسهم أقساما
لصرف الناس عن الإيمان بالنبي - صلى الله عليه وسلم - .
والمعنى: وقل - أيها الرسول الكريم - إني أنا النذير المبين لكم من عذاب
مثل عذاب المقتسمين ...

وقد فصل الإمام الألوسي القول عند تفسيره لهاتين الآيتين فقال ماملخصه:
قوله - تعالى - : كما أنزلنا على المقتسمين ... ، متعلق بقوله - تعالى - : ولقد
آتيناك سبعا ... ، على أن يكون في موضع نصب نعتا لمصدر من آتيناك مخذوف
أي: آتيناك سبعا من المثاني لإيتاء كما أنزلنا ، وهو في معنى: أنزلنا عليك ذلك
إنزالا كإنزالنا على أهل الكتاب الذين جعلوا القرآن عضين ، أي قسموه
إلى حق وباطل ...

وقيل: هو متعلق بقوله - تعالى - : وقل إني أنا النذير المبين ، ...
وجوز أن يراد بالمقتسمين جماعة من قريش ... أرسلهم الوليد بن المغيرة ،
أيام موسم الحج ، ليقفوا على مداخل طرق مكة ، لينفروا الناس عن الإيمان
برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانقسموا على هاتيك المداخل ، يقول بعضهم
لا تغفروا بالخارج فإنه ساحر ...

أي: وقل إني أنا النذير عذايا مثل العذاب الذي أنزناه على المقتسمين .
وقيل المراد بالمقتسمين ، الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحا - أي
يقتلوه ليلا - فأهلكهم الله ...

ثم قال - رحمه الله - : والأقرب من الأقوال المذكورة أن قوله : كما
أنزلنا ... ، متعلق بقوله - تعالى - : ولقد آتيناك سبعا ... ، وأن المراد
بالمقتسمين أهل الكتابين ، وأن الموصول مع صلة ، صفة مبنية لكيفية
اقتسامهم ...

والمعنى: لقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ، لإيتاء مماثلا لإنزال
الكتابين على أهلها ... ، (١) .

(١) راجع تفسير الألوسي ج ١٤ ص ٧٢ وما بعدها .

ويدون لنا أن من الأفضل أن يكون المراد بالمقتسمين ، ما يشمل أهل الكتابين وغيرهم من المشركين المتحالفين على مخالفة الأنبياء . وتكذيبهم وأذاً - كما قال ابن كثير - وقد ذهب إلى ذلك الإمام ابن جرير ، فقد قال - رحمه الله - بعد سرده للأقوال في ذلك ماملخصه : « والصواب من القول في ذلك عندى أن يقال : إن الله - تعالى - أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يعلم قومه الذين عصوا القرآن ففرقوه ، أنه نذير لهم من سخط الله وعقوبته ، أن يحل بهم ما حل بالمقتسمين من قبلهم ومنهم ... »

وجائز أن يكون عنى بالمقتسمين : أهل الكتابين .. وجائز أن يكون عنى بذلك : المشركون من قريش ، لأنهم اقتسموا القرآن ، فسماه بعضهم شعراً ، وسماه بعضهم كهانة ... »

وجائز أن يكون عنى به الفريقان ... ويمكن أن يكون عنى به المقتسمون على صالح من قومه . لأنه ليس فى التنزيل ولا فى سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا فى فطرة العقل ، ما يدل على أنه عنى به أحد الفرق الثلاثة دون الآخرين ، وإذا فكل من اقتسم كتاباً لله بتكذيب بعض وتصاديق بعض ، كان داخلاً فى هذا التهديد والوعيد ... (١) .

ثم أكد - سبحانه - هذا التهديد والوعيد فقال : « فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » ،

والفاء هنا متفرعة على ما سبق تأكيده فى قوله « وإن الساعة لآتية ... » ، إذ فى هذا اليوم يكون سؤالهم .

والواو للقسمة ، أى : فو حق ربك - أيها الرسول الكريم - الذى خلقتك

فسواك فعدلك ، لنسألن هؤلاء المكذبين جميعا ، سؤال توبيخ وتقرير وتبكيت ، عما كانوا يعملونه في الدنيا من أعمال قبيحة ، وعما كانوا يقولونه من أقوال فاسدة ، ثم لننزلن بهم جميعا العقوبة المناسبة لهم .

فالْمَقْصُودُ من هذه الآية السَّكْرِيَّةُ زيادة التَّسْلِيَةِ للرسول - صلى الله عليه وسلم -- وتأكيْد التَّهْدِيدِ للمشركين .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يمضي في طريقه ، وأن يجهر بدعوته وأن يعرض عن المشركين ، فقد كفاه - سبحانه - شرم فقال - تعالى - : فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين .

إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجهلون معاقبة إله آخر فسوف يعلمون ؛

وقوله : فاصدع . . . من الصدع بمعنى الإظهار والاعلان . ومنه قوله : لاصدع الصبح ، إذا ظهر بعد ظلام الليل والصدع الفجر لانصداعة أى ظهوره . ويقال : صدع فلان بحجته ، إذا تكلم بها جهارا .

أى : فاجهر - أيها الرسول الكريم - بدعوتك ، وبلغ ما أمرناك بتبليغه علانية ، وأعرض عن سفاهات المشركين وسوء أدبهم .

قال عبد الله بن مسعود : ما زال النبي - صلى الله عليه وسلم - مستخفيا بدعوته حتى نزلت هذه الآية . فخرج هو وأصحابه وقوله : إنا كفيناك المستهزئين ، تعليل للأمر بالجهر بالدعوة ، بعد أن مكث - صلى الله عليه وسلم - يدعو الناس إلى الإسلام سرا ثلاث سنين أو أكثر .

وقوله : وكفيناك . . . من الكفاية . تقول : كفيت فلانا المؤنة إذا توأمتها عنه ، ولم تحوجه إليها . وتقول : كفيتك عدوك أى : كفيتك بأسه وشره .

والمراد بالمستهزئين : أكابر المشركين في الكفر والعداوة والاستهزاء بالرسول - صلى الله عليه وسلم -

أى : إنما كفيناك الانتقام من المستهزئين بك وبدعوتك ، وأرغناك منهم ، بإهلاكمهم وذكر بعضهم أن المراد بهم خمسة من كبارهم ، وهم : الوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والحارث بن عيطل ، والعاص بن وائل : وقد أهلكهم الله جميعاً بمكة ، وكان هلاكهم العجيب من أهم الصوارف لتابعهم عن الاستهزاء بالنبي - صلى الله عليه وسلم -

قال الامام الرازى : واعلم أن المفسرين قد اختلفوا في عدد هؤلاء المستهزئين ، وفي أسمائهم ، وفي كيفية طريق إستهزائهم ، ولا حاجة إلى شيء منها .

والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة ، لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على إظهار مثل هذه السفاهة ، مع مثل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في علو قدره ، وعظم منصبه ، ودل القرآن على أن الله - تعالى - أفتاهم وأبادهم وأزال كيدهم ، (١) ،

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المستهزئين قد أضافوا إلى ذلك الشرك والكفر فقال : « والذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ، في عباداتهم وفي عقيدتهم ، فسوف يعلون ، ما يترتب على ذلك في الآخرة من عذاب شديد لهم ، بعد أن أهلكناهم في الدنيا وقطعنا دابرهم .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتساية أخرى له - صلى الله عليه وسلم - ، ويأرشده إلى ما يزيل همه . ويشرح صدره ، فقال - تعالى - : ولقد علم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين . »

وضيق الصدر : كغايه عن كدر النفس ، وتعرضها للهموم والأحزان .
أى : ولقد تعلم - أيها الرسول الكريم - أن أقوال المشركين الباطلة فيك وفيما جئت به من عندنا ، تحزن نفسك ، وتسكر خاطرك .

وقال - سبحانه - : ولقد نعلم . . . بلام القسم وحرف التحقيق ، لتأكيد الخبر ، وإظهار مزيد الاهتمام والعناية بالخبر عنه - صلى الله عليه وسلم - في الحال والاستقبال .

ونفاً في قوله : فسبح بحمد ربك . . . واقعه في جواب شرط .
والتسبيح لله - تعالى - معناه : تنزيهه - عز وجل - عن كل ما لا يليق به .
والتحميد له - تعالى - معناه : الثناء عليه بما هو أهله من صفات السكالات والجلال .

أي : إن ضاق صدرك - أيها الرسول الكريم - بسبب أقوال المشركين القبيحة ، فأفرغ إلينا بالتسبيح والتحميد ، بأن تسكثر من قول سبحانه الله ، والحمد لله .

قال بعض العلماء : فهذه الجملة الكريمة قد اشتملت على الثناء على الله بكل كمال ؛ لأن الكمال يكون بأمرين : أحدهما : التخلي عن الرذائل ، والتنزه عما لا يليق ، هذا معنى التسبيح .

والثاني : التحلي بالفضائل ، والاتصاف بصفات الكمال ، وهذا معنى الحمد .
فم الثناء بكل كمال . ولأجل هذا المعنى ثبت في الصحيح عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « كلستان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، - تبييتان إلى الرحمن ؛ سبحانه الله وبحمده ، سبحانه الله العظيم . . . » (١)

والمراد بالسجود في قوله - تعالى - : « وكن من الساجدين ، الصلاة . وعبر عنها بذلك من باب التعبير بالجزء عن الكل ، لأهمية هذا الجزء وفضله ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء . »

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة ، أن ترتيب الأمر بالتسبيح والتحميد

(١) تفسير أضواء البيان للشيخ الأمين الشنقيطي ج ٣ ص ٢٠٣ .

والصلاة على ضيق الصدر ، دأبل على أن هذه العبادات ، بسببها يزول المكروه
ياذنه - تعالى - ، وتفتشع الهموم ...

ولذا كان - صلى الله عليه وسلم - إذا حزبه أمر لجأ إلى الصلاة .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي من حديث نعيم بن عمار - رضي الله
عنه - أنه سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : قال الله - تعالى - : يا ابن آدم
لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار ، أكفك آخره .

فينبغي للمسلم إذا أصابه مكروه أن يفزع إلى الله - تعالى - بأنواع الطاعات
من صلاة وتسبيح وتحميد وغير ذلك من ألوان العبادات .

والمراد باليقين : الموت ، سمى بذلك لأنه أمر متيقن لحوقه بكل مخلوق :
أى : ودم - أيها الرسول الكريم - على عبادة ربك وطاعته مادمت حيا ،
حتى يأتيك الموت الذي لا مفر من مجيئه في الوقت الذي يريد الله - تعالى - .
وما يدل على أن المراد باليقين هنا الموت قوله - تعالى - حكاية عن المجرمين :
« قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين .
وكنا نكذب بيوام الدين . حتى أتانا اليقين » ، أى : الموت .

وبدل على ذلك أيضا ما رواه البخارى عن أم العلاء أن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت : قلت : رحمة الله
عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله . فقال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - : وما يدريك أن الله قد أكرمه ... أما هو فقد جاءه اليقين
- أى الموت - ولبنى لأرجوه له الخير ، (١) .

قال الإمام ابن كثير : ويعتدل بهذه الآية الكريمة ، على أن العبادة

(١) صحيح البخارى ج ٢ ص ٩١ : كتاب الجنائز ، باب الدخول على

كالصلاة ونحوها ، واجبة على الإنسان ، ادام عقله ثابتا ، فيصلى بحسب حاله ، كما ثبت في صحيح البخارى عن عمران بن حصين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب ، .

ويستدل بها أيضا على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فتنى وصل أحدهم إلى المعرفة ، سقط عنه التكليف عندهم وهذا كفر وضلال وجهل ، (٢) .

وبعد : فهذه سورة الحجر ، وهذا تفسير لها . نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

د . محمد طنطاوى

المدينة المنورة فى ٦ من جمادى الثانية سنة ١٤٠٢

فهرس إجمالى لتفسير سورة الحجر

رقم الآية	الآية المفسرة	الصفحة
	مقدمة	٣
٩	الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين	٨
١٩	ولقد جعلنا فى السماء بروجا	٣٠
٢٦	ولقد خلقنا الإنسان من صلصال	٤٢
٤٥	إن المتقين فى جنات وعميون	٥٨
٤٩	فبى عبادى أنى أنا الغفور الرحيم	٦٣
٦١	فلما جاء آل لوط المرسلون	٧٠
٧٥	إن فى ذلك لآيات للمتوسمين	٨١
٨٥	وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق	٨٧